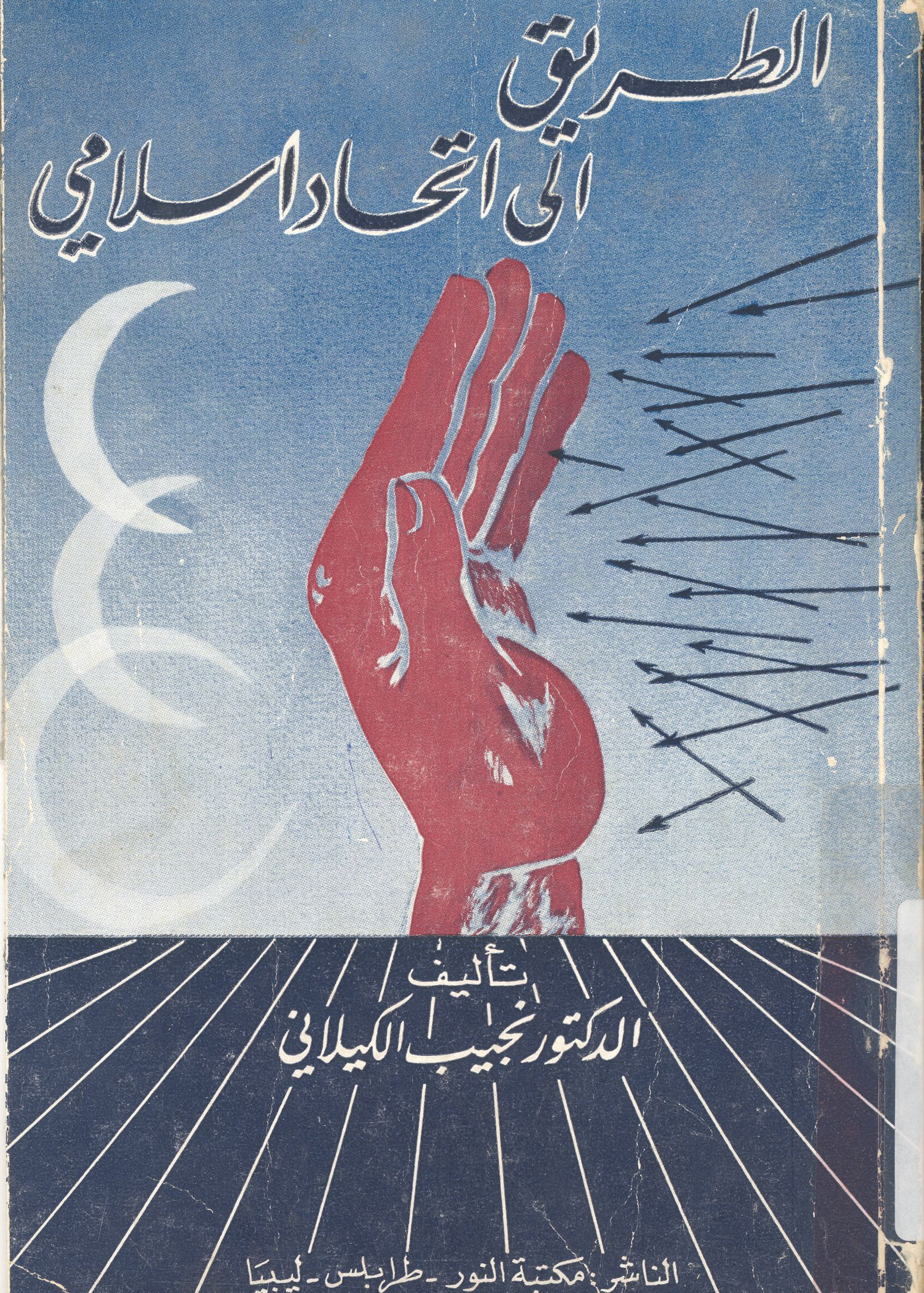

الطريق
الى اتحاد اسلامي
تأليف
الدكتور نجيب الكيلاني
الناشر: مكتبة النور - طرابلس - ليبيا

الطريق الى اتحاد اسلامي

الطبعة الاولى

سنة ١٩٦٢

الدكتور نجيب الكيلاني

الطريق إلى اتحاد إسلامي

الناشر
مكتبة النور - طرابلس - ليبيا
ص ب رقم ٨٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تَموتُن إلا وأنتُمْ مسلمونَ . واعتصموا بحبْلِ اللهِ جميعاً ولا تَفَرَّقُوا واذكروا نِعْمةَ اللهِ عليكُمْ إذ كُنْتُم أعداءً فألَّفَ بينَ قُلوبِكُمْ فأصبحتُمْ بنعمَتِهِ إخواناً وكُنْتُمْ على شَفا حُفرةٍ من النارِ فأنقذكُمْ منها كذلك يبينُ اللهُ لكمْ آياتهِ لعلكُمْ تهتدونَ . ولْتَكُنْ منكمْ أمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عنِ المنكرِ وأُولئكَ هم المفلحونَ . ولا تكونوا كالذينَ تَفرقوا واختلفُوا من بعدِ ما جاءَهُمُ البيناتُ وأولئكَ لهمْ عذابٌ عظيمْ . »

صدق الله العظيم

مقدمة

أخي القارىء ...

قد يرى البعض ان الأعمال الفكرية والأدبيـة ، تقدم نفسها بنفسها ، ومن ثم فلا داعي لكتابة المقدمات التي تتصدر الكتب، حتى نوفر الوقت والصفحات ، ونندمج في موضـوع الكتاب مباشرة ، دون مقاطعة أو تدخل من الكاتب ، غـير أني لا أومن بهذا الرأي ، فبيني وبين قارئي – حسبا أعتقد – أشياء أخرى .. معاني كبيرة .. تجعل صلتي به لا من خلال الموضوع الذي أقدمه فحسب ، بل من خلال رابطة روحيـة مباشرة ، وشعور إنساني عميق .. أريد أن أكون مع قارئي أخـاً .. ومؤلفاً .. والتأليف وسيلة من وسائل هـذه الأخوة ، وطريق اليها ..

وعندما أمسك القلم يا أصدقائي لأكتب لا أكون وحـدي أبداً ، ولا يتطرق إلى ذهني أنني في خلوة يمتـد فيها الصمت

العريض ، ولا في برج عاجي يحلله السكون والاستعلاء ، بل يبدو لي في كثير من الأحيان أنكم تزحمون عليّ المكان ، وتحيط بي وجوهكم السمحة الطاهرة ، وعيونكم المفتوحة التي يترقرق فيها الحب والأمل ، تتابع ما أكتب كلمة كلمة ، وسطراً سطراً ، وفصلاً فصلاً ، وقد يمتد بي الخيال فأرى على وجوهكم علامات الرضى أحياناً ، وسمات السخط أحياناً أخرى ، فأناقشكم الرأي ، وتناقشونني حتى لكأننا في ندوة فكرية ، قد حمى فيها الجدال ، وارتفعت حرارته ...

ولست أضيق ذرعاً بهذه الصورة التي يجسمها لي الوهم دائماً ...

ولا أحس حرجاً من نظراتكم التي تتتبع خطواتي في يقظة وصدق ..

أصبحتم - أيها الأخوة - جزءً من ضميري ...

أنتم بإيمانكم القوي ، ومبادئكم الغالية ، وغيرتكم الرائعة من أجل الله والحق وشرف الإنسانية .. ونضالكم العظيم في سبيل الاسلام وإعلاء كلمة الله .. انتم - على هذه الصورة - جزء من ضميري ...

أنتم أيها الصابرون المناضلون على سفوح الجبال ، وسراديب الكهوف في الجزائر ..

أنتم أيها السائرون على المحجة البيضاء في روابي دجلة والفرات ...

أنتم أيها المنادون بكلمة الله في أعماق القارة السوداء - أفريقيا .

أنتم أيها المضحّون الشرفـاء في الشام واليمـن والجزيرة العربية ..

أنتم أيها الهاتفون بعشرات اللغات في الهند والباكستان واندونيسيا والملايو ومختلف انحاء آسيا والجزر النائية في البحار والمحيطات ...

أنتم يا أصحاب الوجوه السمراء والبيضاء والصفراء في شتى أنحاء الأرض ..

أنتم يا حملة القرآن .. يا جنود الاسلام.. يا نور الله ومعجزته في عالم يسوده الظلام والقلق والعذاب ...

أنتم ... أنتم .. جميعاً .. جزء من ضميري ...

ولهذا أكتب اليكم ..

ولهذا ألجأ إلى كتابة المقدمة لأسعد بلقائكم .. ذلـك اللقاء الاخوي الباهر ...

* * *

والكتاب الذي بين أيديكم ما هو إلا صرخة طالمـا ترددت بين جوانحكم ، وهتفت بها ألسنتكم ،وراودت أحلامكم في اليقظة والمنام ..

فإلى متى تظل شعوبنا الاسلامية فريسة للفرقة والانقسام؟؟

وإلى متى يظل الأعـداء يوقعون بيننا ، ويؤرثون الشحناء والبغضاء ؟؟

وكيف تستأثر بأفكارنا وطاقاتنا تلك الوسائل الملوثة ، وتصرفنا عن الغايات الكبرى ؟؟

وهل من الانصاف أن يظل تراثنا الخالد مجرد « متحف » نتسلى برؤياه ، ويظل قرآننا مجرد « وعظيات » تلقى على المنابر ، وتُقرأ على الموتى في القبور ، ويُتغنى بها على موجات الأثير ؟؟

وإلى متى تظل مبادىء شريعتنا الغراء معزولةً عن حياة الفرد والجماعة ، محجوبةً عن أفق البيت والمدرسة ودواوين الحكومة ، والعلاقات العامة والخاصة ، فلا يُسمح لها بالتفاعل في مختلف أوجه النشاط الفكري والسياسي والاقتصادي ؟

وهل من الاسلام أن يبقى علماؤنا هدفاً للاتهام .. فيرميهم الأعداء بالقصور والرجعية ، ويصمونهم بالافلاس الفكري ، وعدم مواكبة التطورات الثقافية العالمية المعاصرة ؟؟

* * *

إن حركة البعث الاسلامي يجب أن تنطلق ، وتحدث أثرها الفعال .. وشعائرنا وأفكارنا الراكدة الباردة ؛ يجب أن تنطلق منها ألسنة اللهب ، فتحرق الكسل والجهالة وضيق الأفق ، وتُنضج في نفس الوقت مفاهيمنا ونظرتنا الى الحياة والأحياء .. وبالتالي ستتحول سلبيتنا المخجلة إلى إيجابية فعالة مشرّفة ، إلى وعي مكتمل ، ومشاركة حقيقية في قضايا عصرنا الحائر المرتبك ..

ولن يكون لكلمتنا وزنها إلا إذا فتحنا نوافذ عقولنا على كل جديد في العالم ، وتلقيناه في حرص وذكاء وعدالة ، وقسناه بالمقاييس الاسلامية الصحيحة ، وتمثلناه تمثلاً صادقاً واعياً .

فالاسلامية بناء . . ومدنية . . وتقدمية . . وحركة إيجابية . .

فالهدامون الحاقدون نحن منهم أبرياء . .

والمتخلفون الجامدون لا يمثلون الاسلام في شيء . .

والكسالى المترفون الخانعون لا مكان لهم في المجتمع الاسلامي النظيف . .

والمتعصبون عن جهل ، والمتحمسون عن سطحية ، الاسلام بريء منهم الى يوم الدين . .

والطائفية المقيتة ، التي استشرى خطرها في كثير من انحاء العالم الاسلامي ، نحن نحاربها بكل ما أوتينا من قوة ، وبكل ما وهبنا الله من بأس . .

نحن – أيها الأخوة – جنود في معركة كبرى .

ولن ننتصر فيها إلا اذا تسلحنا بالوعي والفهم السليم ، واعتصمنا بالإيمان والصبر ، ولن نبلغ الغاية إلا اذا أمتلأت قلوبنا بالحب لبني البشر كافة ، إلا إذا أرقنا لمصير العالم من حولنا ، وواسينا المرضى والمتعبين والضائعين في هجير الحياة

وصحرائها الموئسة المخيفة ..

* * *

وفي الصفحات القليلة القادمة ، حاولت أن أرسم الطريق الى اتحاد إسلامي ، تحقيقاً للغاية التي نهدف إليها ، واستجابة لكلمة الله الخالدة ، ولهذا كان من الضروري أن نبسط – في إيجاز – التيارين الفلسفيين اللذين يسودان العالم الآن :

الفلسفات التي تؤله الفرد ..

والفلسفات التي تؤله الجماعة ..

وحاولت أن أبين موقف الاسلام من هـذين التيارين ، ووضعه بالنسبة لهما ..

ثم تطرق بي الحديث – في الفصل الثاني – إلى الأسباب التي جعلت ظل الاسلام ينحسر عن واقع حياتنا ، فلا يؤثر في مجريات أمورنا ، ولا يلعب دوره الخطير المفروض ..

ولعل أهم ما ركزت عليه الأضواء هو خلق رأي عـام إسلامي ، حيث تناولت أغلب وسائل التأثير والتوجيه في المجتمعات الاسلامية الحديثة ، كالصحافة والاذاعة والسينما والمسرح والمسجد والحج والكتاب ، ثم الأسس الفكرية التي يجب ان يصدر عنها أدبنا وفنوننا ، وكان أهم ما لفت نظري أن تلك الأسس لم تلق عليها الأضواء الكافية بعد ، فكيف نكتب أدباً ، ونقدم فنوناً تتمثل النظرة الاسلامية ؟ ؟ إن

أغلب الحركات الاسلامية المعاصرة قد تجاهلت هذه الناحية تجاهلاً مشيناً . إما لعدم تقدير لدورها الفعال ، أو لانشغال عنها بمعارك سياسية أو فقهية أو حربية .. فكان لزاماً علينا أن نلم إلماما سريعاً بهذه المشكلة ، وخاصة أننا سنفرد لها بإذن الله كتاباً خاصاً – الاسلامية والمذاهب الأدبية –

وبعد ذلك تناولنا أسس الاتحاد الاسلامي ، من حرية وشورى وإخاء ومساواة وتكافؤ فرص .. و .. و .. إلخ ، وأتبعنا ذلك برسم سريع لصورة هذا الاتحاد ، ثم علاقاته الخارجية مع غيره من دول العالم ذات المذاهب والنزعات المخالفة ..

ولنكن صرحاء أيها الاخوة ..: إن بعض ما قدّمت قد ينطوي على بعض الأحكام الاجمالية المقتضبة ، ولا شك أن مثل هذه الأمور في حاجة الى المزيد من التفصيل والتحقيق ، غير أن الخطوط العريضة التي رسمتها ليس من المستطاع ان تكون مجال فرد واحد ، وإنما هي مجال كبير تنوء بتفاصيله أقلام عدّة .. وهي في مسيس الحاجة لجهود العشرات ، بل المئات ممن يؤمنون بكلمة الله الأخيرة إلى الأرض ..

وإننا لنرجو من الله الثواب فيما بلغنا من صواب ، والمغفرة فيما أخطأنا عن حسن نية « والعصر . إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . »

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ..

صدق الله العظيم .

وإلى اللقاء ..

القاهرة في ٩ من ذي الحجة ١٣٨١ هـ

١٣ مايو ١٩٦٢ م

نجيب الكيلاني

الفصل الأول

هذا العصر

لا شك أن العالم اليوم ، يجتاز أخطر مراحـــل حياته ، ويخوض تجـارب مريرة ، وتتوزعه أهواء شتى ، وتتصارع فيه تيارات صاخبة مزمجرة ، وما أن بزغ عصر الآلة ، وانبثقت منه الطاقات الكامنة ، وانطلقت من ترو سه القوية الرهيبة ، حتى اهتز كثير من القيم ، وارتجفت أصول السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وتشكل العقل البشري تشكيلاً جديداً ، وكان ذلك بداية فلسفات عدة ، حمل لواءها نفر من الأعلام والمفكرين الكبار ، وحاولت بعض الفلسفات ان تدور في مجال محدود ، مجال الفرد الأوحد ، او اللبنة المقدسة في البنـاء البشري الكبير ، وقالوا ان الانسان برغم فرديته عالم شاسع عريض . يضج بالآمـــال والآلام . وتنفجر من روحه كل حركات العالم الخارجي بزوابعه وأعاصيره وبروائعه ومعجزاته ، وأكدوا ان هذه المفـاهيم هي غاية المنى ، فهي انتصار للإنسان ولآدميته ، وفهم كامل لحقيقته وإدراك تام لسر بقائه ووجوده. وزعموا ان الإيمان بهذه الحقيقة الأساسية بداية مشرقة لعصر السعادة والفردوس المفقود ..

وكيف لا يكون الانسان كذلك في ظل هذه الفلسفات ،

وهي الـتي تهبه الحرية والقداسة ، وتجعل منه الإله الجديـد في العالم الحديث ؟؟

اما الاتجاه الثاني فقد نظر الى البشرية كمجموع ، ونفّر من الفردية ، وجعلها محطاً للأنانية الشرهة والانطوائية الفاسدة ، فمن البديهي – في نظرهم – أن المجتمع السعيد هو المجتمع الذي يكون فيه الفرد خادماً لبني جنسه ، يدفع حريته ثمناً لحريتهم ، ويفنى من أجل بقائهم ، ويشقى ويكدح في سبيل اسعـادهم ، وتهيئة الحياة الرخية الرغيدة لهم وللأجيـال اللاحقة ، ونتيجة لذلك سوف تتوزع هذه السعادة الجماعية على أفراد المجتمع فرداً فرداً ، ومن هنا يصبح الفرد والمجتمع كياناً واحداً مندمجـاً ، تشمله السعـادة ، ويعمه النعيم ، وتذوب في خضمه الأحقـاد والأنانيات ، ويموت الجشع ، وتترعرع كل القيم الفاضلة .

وهكذا أخذت تدور تلك الفلسفات كل واحدة في فلكها تلتقي أحياناً ، وتتعارض أحياناً أخرى، فتنشب المعارك بسبب وبغير سبب ، ويعيش الفرد العادي وسط هذه المظاهر العاصفة حـائراً ، يحترق بعـذاب القلق والضيـاع ، ويشقى في خضم الصراعات الدامية المروّعة ..

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نبت من هذين التيـارين الرئيسيين اتجاهات وفروع شتى، فازداد الأمر غموضاً، وأظلمت معالم الطريق ، وتخبطت البشرية في الظلمات ، وكان من جراء ذلك ان ظهرت – من جديد – النعرات الجنسية والمذهبيـة ،

ورأى العالم رجلاً كهتلر يرفع الجنس الالماني فوق الجميع ، ويحيط نفسه بطائفة من المفكرين المنحرفين فيسطرون الكتب ، ويصدرون النشرات تلو النشرات ، ويملأون أنهار الصحف بدعاوى كاذبة عن جنسهم السامي الذي يجب ان يسود ويحكم العالم ، ويملك زمام الثروات والتجارات ، ويتحكم في مصائر البشر ، وتجاوب معه موسيليني في ايطاليا ، يريد أن يحيي مجد الأمبراطورية الرومانية القديمة ، ويعيد مجد روما ، ومن جهة أخرى تمرد كمال أتاتورك ، وتنكر لدينه وماضي أمته ، وحمل لواء الطورانية ، كيما يجعل من تركيا جنساً سامياً اوربياً ، حتى لكأن سيفه الذي حقق به النصر في بعض المعارك الحربية كفيل بأن يقلب حقائق الفطرة الإنسانية ، ويغير حقائق التاريخ ، ويزيف البديهيات المقررة ، وقد ينتصر هذا الزيف الفكري لحقبة قد تطول وقد تقصر لكن النهاية المحتومة هي ان تنهزم الترهات ، وتخلد الحقائق الأصلية التي لا تتأثر بسيف رجل قوي ، أو مزاعم مفكر منحرف ، او افتئات فلسفة عرجاء ، ولا شك ان مثل هذه الفترات المنحرفة بالنسبة للزمن الكبير محدودة تافهة ، لا تخلف وراءها غير زوبعة صغيرة ، سرعان ما تخمد أنفاسها وتذوب تحت وهج الحقيقة كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس المشرقة .. واستطاع أيضاً رجل كستالين أن يتبنى الفلسفات الخاصة بمادية التاريخ ، ونظريات ماركس وانجلز ، فيسوق شعباً كبيراً تعداده مئات الملايين بعصا بطشه

وطغيانه ، فيسحق كل صوت يهتف بالحرية ، ويحطم كل نزعة ترفع يد المعارضة ، أو تصرخ بكلمة « لا » ، ووسط حمامات الدم المراق ، والنفوس المزهقة ، ومئات الألوف من الضحايا والمسجونين ، سمع من يقول له : انت الرفيق العظيم .. وأبو الشعب .. والمعلم الأول.. وباني مجد العمال .. واستطاع الرجل « الحديدي» بسيفه ان يحني الرقاب لكلمته وسلطانه،وان يحيل أفراد شعبه الى آلات يحركها الوقود والطعام والبطش ، ممنياً إياهم بالجنة الموعودة ، ومستقبل أفضل ، وعالم يسوده السلام والرخاء والمحبة . أكان من المعقول أن تتوطد دعائم السلام على قاعدة من أشلاء الضحايا ، وان تنبع المحبة من قلوب عذبها القهر ، وأرهقها الارهاب والوعيد ، ونغص حياتها الخوف المدمر ؟؟

وبدا أمر ستالين مشكلة المشاكل ، ان الرجل فعلاً يحاول ان يجد الخبز لكل جائع ، وما كان أكثر الجائعين في الروسيا آنذاك ، أي بعد هزيمة القيصرية ، لكن المشكلة لم تكن لقمة وحدها برغم اهميتها وضرورتها ، فلقمة العيش وحدها لا تخلق الانسان الحر النبيل وإلا لتحولت الدواب – بعد ان يتوفر لها الطعام والشراب – الى اناس .. وهيهات ..

وخلال مدة حكمه الرهيب تحول الشعب الى أفواه صامته ، لا تفتح شفتيها إلا لتأكل وتهتف باسم الزعيم ، وتحولت قلوب البشر الى سجون صغيرة تخفي خلف جدرانها الرقيقة كثيراً من

الكبت والعذاب والحرمـان ... والآلات تدور والآدميون يدورون أيضــاً ، ويتحولون الى عبيد ، في ظل حامل لواء التقدمية والشيوعية والسلام والجنة الموعودة وعدو الرأسمالية المتعفنة ... وهكذا خاض سيتـالين برك الدم ليحقق فلسفة الجمـاعات ، وبلـغ به التطرف درجـة جعلت حرية الانسان — كفرد - لا شيء على الاطلاق . يعـاونه في ذلك طائفة من الرجال تشربوا مبادئه ، وقاموا بتنفيذها إما عن خوف منه ، او جهل بما يقترفون ، وإمـا عن طموح شخصي ولو على إشلاء العبيد والتعساء .

ومات الرجل .. وبقي الخوف من بطشه برغم أنه قـــد اصبح جثة هامدة ، واخيرا استطاع رجل كخرشوف أن يعلن على العالم الشيوعي خاصة وغير الشيوعي عامة أن نبي الشيوعية .. الرفيق الأعظم .. كان طاغية .. وكان سفاحاً .. وكان سبة في تاريخ روسيا ، ووصمة في جبين السلام والحريـة والمحبة ، واستطاع خروشوف هو الآخر أن يمحو بسيفه مجد سلفه ، وأن يشوه تاريخه ، وسرعان ما استجاب له شعبه بنقاباته ومنظماته وجمهورياته ، وبين عشية وضحاها تصاعدت اللعنات من صدور المجروحـين والمعذبين ، وامتلأت الصحف بالسبـاب .. نفس الصحف التي كانت تتغنى بمحامد نبي الشيوعية وحارسها العظيم .. وتسابقت الأيادي لتمحو اسمه من الشوارع والمـدن والقرى ، وتقذف بتماثيله في عرض نهر « الفولجـا » ، وانقلبت مطولات المديح الى هجائيات لاذعة .

ولم يكن هذا غريبا في مجتمع صامت الأفواه، عليل الأفئدة.. مجتمع الآلات والتروس والوقود والطعام ..

ولم يكن المعسكر المضاد بأسعد حالاً في الدول الرأسمالية - أمريكا انجلترا وفرنسا وغيرهم - لقد أطلقوا على أنفسهم اسم « العالم الحر » .. عالم البرلمانات والشورى والايمان بالانسان الفرد ، ككائن له غرائز وآمال ذاتية ، واحلام شخصية ...

ولم يكن الفرد العادي في العالم الحر يحكم ويشير أو يسيّر دفة الأمور كما يزعمون .. كان هناك دكتاتور جديد هو رأس المال ، ولا يستطيع أحد ان ينكر ان رأس المال هو الحاكم بأمره ، والموجه لسياستهم المحلية والخارجية .. ومن الإنصاف أن نقرر أن المنافسات المختلفة قد حققت قسطاً من التقدم والتطور لكنها كانت سيفاً جديداً يسوق الرأي العام الى الانحطاط الخلقي والتردي والدعارة، وهكذا زحفت أساطيلهم التجارية ، لتمهد للاستعمار البشع ، وتسابقت دولهم الى الشرق في آسيا وأفريقيا، لتقتطع الاقطاعيات، وتصنع الملوك والتيجان وتربي الخونة ، وتحطم المعاني النبيلة ، مستغلة ضعف هاتيك الشعوب وتأخرها ، ووضعت في رأس القائمة القضاء على القيم الروحية، وهي زاد الشعوب في رحلة الحياة التي تدهمها العواصف والكوارث من آن لآخر ..

ونسي « العالم الحر » وهو يزحف بجيوشه معاني الحرية التي اعتنقها ودعا الناس اليها ، وبدا للجميع ان الحرية حق موقوف

على الأقوياء الذين يملكون الامكانيات من مال وسلاح وعلم ، وأنها حرام على الضعفاء الذين اوقعهم سوء الطالع في قبضة الفقر والجهل والتخلف ، ومن ثم تحولت الهند العريقة الى « بورصة » كبيرة ، وتسلل الوباء الاوربي الى أرضها يبيع ويشتري ويسرق حتى ان الهنود لم يكونوا يستطيعون الحصول على ملح الطعام.. وهو ملحهم .. إلا بعد دفع الضرائب، وأداء الالتزامات المختلفة فأعجب للص يبيع المتاع المسروق لصاحبه بأبهظ الاثمان !!!

ولم يقف العدوان عند حد الاتجار والنهب والسرقة ، بل امتدت أصابعهم الملوثة الى كراسي الحكم ، يولون من يشاءون ، ويعزلون من يشاءون ، وينصرون الخونة على الاحرار، ويمدونهم بالسلاح والنصيحة ، حتى تحارب الأشقاء ، وأنقسم أهل البلد الواحد الى شيع وطوائف ، ولم يكتفوا بهذا بل زوّروا التاريخ وأخفوا معالم أمجاد الشعوب المغلوبة على أمرها ، وكتبه المفكرون المستعمرون المأجورون من وجهة نظرهم ، وحاولوا قدر طاقتهم أن يطمسوا ملامحه المشرقة ، ويهيلوا التراب على أمجاده وأعلامه أو يشوهوها، ويقطعوا الصلة بين الحاضر وتراث الماضي المجيد الغني بكل الفضائل والخيرات ..

هكذا فعلوا في مصر حينما ناصروا حاكمها الظالم ، وبثوا بين شعبها الفتن والبوار ، ووصموا الأحرار بكل رذيلة ، واستجلبوا سخط الخليفة العثماني آنذاك على كل من نادي بالحرية ، وسرعان ما خرجت منشورات الباب العالي تتهم عرابي ومحمد عبده

والأفغاني وغيرهم بالمروق والعصيان ، وأحياناً بالخيانة والكفر.

وأصبح المستنيرون بين عشية وضحاها ، هدفاً للطعنات والزراية ، وفتح الطاغية المأجور .. الخديوي .. بيديه الملوثتين أبواب السجون ليسكت كل صوت يناوئه ويكبح كل نزعة للخير والتقدم ، وباع الخديوي توفيق وأسلافه وأحفاده من بعده ، باع شعبه ليبقى فوق أريكة الحكم ، واستغل جهل الغالبية العظمى وفقرها وعللها ، وتنكر للأقلام الحرة ، والكلمات الشريفة المضيئة وفتح باب قصره على مصراعيه للانجليز ، كما أعطاهم مفاتيح مصر ليدخلوها آمنين ، ومن وقف في طريقهم قتلوه أو شردوه او سجنوه .

ولم يقف طغيان الأمم الرأسمالية عند الأمم المستعمرة المستعبدة وحدها ، بل امتد شرها الى مواطنيهم في أممهم .. أولئك المواطنون الذين كتب عليهم ان يكونوا اليد التي يبطش بها الطغيان، والمعول الذي يحطم أمن البشر وسلامهم، واستطاع الرأسماليون ان يخدروا شعوبهم بكلمات معسولة ناعمة ، ويملأوا رؤوسهم بمثاليات جوفاء لا وجود لها ، ولا طائل تحتها ... أو يستطيع عاقل ان يتصور أن الحرب العالمية الثانية مثلاً قد قامت دفاعاً عن مبادىء الحريات ، وتحطيم دكتاتورية النازية ؟؟ لا أظن عاقلاً يتصور ذلك مطلقاً ، فلو اكتفى هتلر بأن حكم شعبه بالأسلوب الذي يريد ، ووجه طاقته وامكانياته الوجهة التي يراها دون مساس بحقوق الدول الكبرى ، لو فعل ذلك ،

وداس كل القيم والتراث والأديان في بلده ، واكتفى بذلك لما عارضه أحد ، ولا تحركت أساطيل انجلترا وأمريكا والروسيا للتصدي له ، وهزيمة كبريائه وآماله .. لم تكن المشكلة اذن مشكلة طاغية يفرض على شعبه دكتاتورية من نوع زائف وقاس .. وانما المشكلة التي يدركها الجميع الآن هي سباق الرأسمالية وغيرها في مجال الكسب المادي والسيطرة الحربية لتأمين المستعمرات وحماية الموارد المسروقة ، وكانت الحرب حفاظاً على أسواق خاصة تدر الذهب ، وإبقاء الأمم تعسة في ظل العبودية ، كي يستنزف الرأسماليون دماءها وخيراتها ..

ومات الملايين محترقين بالنار والعذاب ...

والأكذوبة الكبرى لم تزل تفرض سلطانها، وتخدع البلهاء.. الأكذوبة التي تقول الكثير ، وتتغنى بالأناشيد عن العالم الحر ، والأكذوبة التي تشيد بحكم الشعب للشعب ، .. الأكذوبة التي تترنم بالسلام والحب والحرية ، الأكذوبة التي تتحدث عن مدنية الانسان ، وحراستها من لصوص الحكم ، وأدعياء الحروب ، وشياطين السياسة ..

* * *

تلك هي صورة العالم في عصرنا الحديث ، حرية يتشدق بها الأقوياء ، ويقاس منها الضعفاء ، ومفاهيم متضاربة مرتبكة ، اختلط فيها الحابل بالنابل ، وتغيرت مدلولات الألفاظ في عصر العلوم والمعرفة ، فأصبح معنى الظلم في العالم الشيوعي هو

الرأسمالية ، أما الظلم من وجهة النظر الرأسمالية فقد أصبح مرادفاً للشيوعية ، وحرمان الأفراد من جهودهم الفردية ،وعدم تمكينهم من إنمائهم ثرواتهم ، وبنائهم لأمجادهم الشخصية ..

وقد يكون مقبولاً أن تختلف وجهات النظر في أمور عدة تكون هي نفسها أهلاً لأن يثار حولها الجدل ، وتتعدد الآراء ، أما أن يحدث مثل هـــذا التناقض الصارخ فأمر غريب غاية الغرابة ..

الروسيا تتحدث عن السلام كلاماً جميلا رائعاً ..

لكن عندما يثور شعب المجر ضد الإرهاب والحكم البوليسي يزحف نحوه الجيش الأحمر بعتاده ، ويقتل الآدميين ، مثلمـــا تُسْحَقُ أسراب النمل ، ويريق الدم باسم السلام والديموقراطية الشعبية ..

وتهتف أمريكا أيضاً بالسلام والحرية والعدالة ..

وهي في الوقت نفسه تدبر الانقلابات في مختلف انحاء العالم، وتبعث بأساطيلها لحماية سلطانها وأذنابها وتجارتها ..

وبين هذه الزوابـــع والأعاصـير يقف إنسان العصر تعساً حزيناً حائراً .. الظلام يحيط به من كل جانب ، لا يرى أمامه موضعاً لقدم ، يطلب السعادة والأمن والدعة ، فيعود خـاوي اليدين ، يائس المصير ...

ويتساءل الانسان دائماً في حيرة ...

ترى .. أين الخلل الكامن في جهاز الحياة ؟

ولماذا يقع الكائن البشري في حيرة ، وقد وضع مصيره في يد العلم وحده ، وأئتمنه على مستقبله وتراثه وعقائده ؟؟؟

وما أن سادت الروح العلمانية المغرضة ، وبسطت نفوذها ، وسخرت من المشاعر الدينية والقيم الروحية الأصلية ، حتى عم القلق ...

أجل عم القلق برغم مظاهر التقدم العلمي والاستقرار المادي وكثرة الوسائل المريحة في ظل الحياة الحديثة التي تؤمن بكل ملموس ، وتنكر كل ما وراء الحواس ، وتنفر من القيم الروحية وتعتبرها طفولة وسذاجة ، وقد آن للانسان ان يتحرر من أوهام طفولته ..

ونسي رجل العصر في غمرة حماسته واندفاعه ان دينه – ونعني بذلك الدين الصحيح ، الخالي من الشوائب والتدليس – ما هو إلا جزء أصيل من ذاته وكيانه وفطرته التي فطره الله عليها ، وحقيقة باهرة من حقائق الحياة الكبيرة التي تمتد في رحابة وثقة ، متغنية بكل رائع وأصيل في أعماق النفس الإنسانية وفي أعماق الحياة نفسها .

« ومما لا جدال فيه ، ان العلوم الطبيعية تقودنا – وقد قادتنا فعلاً – الى مستوى رفيع من فهم العالم الذي نحن فيه ، والعالم الذي فينا ، ولكن لما كانت مهمتنا مقصورة على مراقبة الطبيعة فحسب ، وتحليل اكتشاف القوانين التي يبدو أنها تتحكم

في العلاقات بين هذه المظاهر ، فلا يمكن ان يطلب إليها أن تصدر حكماً فاصلاً في مسألة الغاية من الحياة البشرية ، أو أن تضع لنا بالتالي توجيهات مفيدة في نوع السلوك الاجتماعي الذي يجب ان نسلكه ..

« ولكن لما كان العلم كله في حالة تغير دائم ، بسبب اكتشاف حقائق جديدة وتفاسير جديدة لمظاهر الطبيعة ، تؤدي في العادة الى تطوير النظريات السابقة التي كانت الى عهد قريب حقائق مسلماً بها ، فان نصائحه ستكون تبعاً لذلك أحكاماً متأرجحة رجراجة ، بل قد تكون في كثير من الأحيان متناقضة مع النتائج التي سبقتها ، اذن لا يمكن للعلم (وحده) والحالة هكذا أن يضع لنا قوانين ثابتة لضبط السلوك البشري ، وتوجيهه ، بحيث يعرف الانسان ما يجب عليه ان يفعل أو يترك كيما يحظى بالسعادة والرفاهية. ان هذا هو السبب في أن العلم لا يستطيع — بل انه في الحقيقة لم يحاول — أن يربّي في الانسان الوعي الأخلاقي ، ولهذا يمكننا القول ان مسائل الأخلاق لا تقع مطلقاً في دائرة العلم ، ولكنها تقع بالتأكيد في نطاق الدين وحده[1] » .

إن العقول الصغيرة حاولت ـ ظالمة ـ أن تتنكر لخالقها ، وتفلت من قوانينه الأزلية ، وتصنع لنفسها قانوناً جديداً ، أول مبادئه أن يؤمن بالعلم ، ويكفر بما عداه ، ولم تستطع

---

(١) منهاج الاسلام في الحكم - محمد أسد ص ٢٩ - ٣٠ .

العقول الصغيرة ان تضبط موازين العالم الكبير بل العوالم الاخرى التي تتراءى لنا من بعيد ..

وهكذا تنشأ المشكلة دائماً عندما يتخاصم العلم مع الدين ، او بتعبير آخر ، عندما يحاول ان يستبد بالسلطان ، ويلبس الدكتاتورية ، والعلم الكافر لا قلب له كما يقول فيلسوف الإسلام محمد اقبال .. والعلم قد يكون متغيراً متقلباً غريب الطباع ، قد يهب لك الراحة المادية والرفاهية ، لكنه قد يحطمك ويسرق منك راحة البال وسعادة الضمير ، وأشواق الروح ، إن جرعة مخففة من عقار ما قد تجلب لك الصحة ، وتشفيك مما ألم بك من سقم ، لكنك اذا ما تناولته مركّزاً بلا ضوابط ، تحول الى سم زعاف ، وتبدلت رغبة الشفاء الى سكون وموت ..

نحن لا ننكر ان تغلغل العلمانية ، والغض من شأن الدين ، كانا نتيجة هزات عنيفة جبارة ، امتدت عبر حقب التاريخ ، واهتزت لها أسس الفكر والعقيدة . حدث ذلك حينما تسللت الى الدين البدع والخرافات ، فغرقت اوربا في نظرية التفويض الالهي وصكوك الغفران ، التي تباع لمن يرغبون في النعيم الأخروي بدراهم معدودة ، واستطاعت فئة من الرهبان والآباء الجامدين ان يهيمنوا على حياة مواطنيهم ، ويسرفوا في الجمود والجهالة والخرافات ، ويفرضوا نظريات فاسدة ساذجة عن الحياة والكون ، ويحاربوا كل نزعة للاصلاح ، ويخمدوا الآراء الحرة ، ويسخروا من المحاولات الجريئة في مجالات العلم وتجاربه المفيدة ، واشراقات

العقول الحية المفكرة ...

وفي هذا الجو الجامد الراكد ، سيق المفكرون والمصلحون الأحرار الى المقصلة لتُفْصَل رؤوسهم عن أجسادهم ، او الى النيران ليحرقوا أحياء ...

هذا في اوربا ...

أما في الشرق فقد سادته فترات ظلام وجهالة ، فنام أهله بعد مجد طويل وتاريخ حافل بالانتصارات الفكرية والعلمية ، ووجد فيه من يفتون بعلم وبغير علم ، ويبيعون ذممهم وضمائرهم لحاكم مستبد ويصدرون عن رأيه ، ويؤيدون طغيانه ، ليس هذا فحسب ، بل يلصقون تهمة الكفر بكل من أبدى رأياً حراً يعارض به ولي نعمتهم ، وبكل من دعا الى اسلوب في الحياة جديد يفيد الانسان ، او نادى بهتك حجب الرياء والنفاق ، والقضاء على مستغلي البشر ...

ذلك ما فعله الرجال المنحرفون باسم الدين .

لقد خلطوا بين الدين وبين أقوام زعموا أنهم هم الدين ، وهم الممثلون له والحاملون للوائه .

وعندما أخطأ المتمسحون في الدين والمتحدثون باسمه .. عندما أخطأوا أُلْصِقت أخطاؤهم بالدين ، والحقيقة أنها كانت خطيئة الرجال أو أشباه الرجال ، ولم تكن بأية حال خطيئة المبادىء .

وهذه أيضاً رذيلة من رذائل العلم الذي ظل يحمي في رحابه

كثيراً من الادعياء والمدلسين والمنحرفين .

ونقطة اخرى هامة أخطأ فيها العلم .

أعني بها ذلك الزهد السائـــد في قراءة التراث الديني ، ودراسته دراسة شاملة جادة ، وتقييمه التقيم الجدير به ، مثلمـا يحدث بالنسبة لشتى الفلسفات والأفكار ، ونتاج القرائـــح المختلفة . لقد انصرف الكثيرون عن قراءة الفكر الديني بـله التمحيص والاستقصاء ، وأصبح بدعـــا ان ينكب بعض الدارسين من الطلاب والأساتذة على تراثهم يجلون عنه غبار النسيان والجمود والتشويه .

فمما لا شك فيه ان الكثيرين من مفكرينـــا المتحررين ، يجهلون حقيقة الاسلام ، ويجهلون قواعـــده البسيطة . ونتف المعرفة التي يحصلونها عن دينهم انما يتلقونها في ثنايا عمل سطحي تافه ، في صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات ، وغالباً مـــا تكون هذه الصحف والمجلات حامـلة للواء الهجوم والنيل من عالم من العلماء ، أو تسفيه رأي فرعي من الآراء المتعلقة بالأحكام الدينية ، بل ان اغلب هؤلاء الكتاب قدتلقوا مبادئهم وأفكارهم من مفكرين غربيين ، فتشكلوا بآرائهم وسلوكهم في حيـــاتهم العامة والخاصة .

إن الإسلام في هذا العصر قضية كبرى – كالأمس تماماً – تحتاج لمزيد من الدراسة والاهتمام ، وهو في نفس الوقت واقـع

يفرض نفسه وتاريخه وأثره على ملايين البشر ، وليس من الإنصاف ان يتجاهله مثقفونا ، أو يسخروا من دعاته ، ويصموهم بالرجعية والجمود ، وواجب المفكر الحر ، وكذلك الأمانة العلمية يفرضان على كل مثقف ان يدرس هذه القضية – قضية الإسلام – يدرسها دراسة تمحيص وإمعان وإنصاف ، فمن العار أن ندرس غيره من الفلسفات والقضايا ، ولا تقترب من حقائق الدين ، وتكون الكارثة الكبرى يوم ان نصدر أحكاماً ندين بها الدين ، ونحن أبعد ما نكون عن نزاهة القاضي ، وتمحيص الدارس المنقب وإخلاص العالم الوفي لنفسه وللبشرية .

إن الثقافة الاسلامية بين جماهيرنا في الشرق ضئيلة ، والكثير منها إما مشوه مبتور ، أو مسيء العرض رث الثياب ، وبعضها لا جدوى من ورائه حيث يجري في ركاب حاكم متحيز ، أو يلهث خلف اكتشاف علمي حديث محاولاً بذلك ان يحيل القرآن – وهو كتاب الله ومعجزة نبيه – مخطوطاً للطبيعيات أو الرياضيات .

هذا في الوقت الذي تنتشر فيه مطبوعات الاثارة الغريزية ، وتدخل أغلب البيوت ، ويتحدث عنها في كل ناد ، وتطبع منها عشرات الألوف بل الملايين في شتى اللغات ، ما دامت تتملق النزوات ، وتغرق العقل والحواس في جو مخدر مسمم .

ألم نقل أن الثقافة الاسلامية في أزمة ؟

وكثير من الدراسات التاريخية في بلادنا مزورة كاذبة ،

تكتب – في الاغلب الاعم – من وجهة نظر كاتبها ، أو تتأثر بآراء المستشرقين والمستعمرين ، ويتناسى المؤرخ أن تاريخ هذه البلاد مرتبطاً أوثق الارتباط بالتراث الاسلامي ، ذلك المد الجبار الذي ترك أعمق الاثر في حركات التاريخ وأحداثه الصغرى والكبرى ، ولقد قرأنا بعض الدراسات عن محمد صلى الله عليه وسلم ، حاول كاتبوها أن يتجنبوا الوحي والرسالة الالهية باتجاهاتها المختلفة ، بل حاولوا أن يتجنبوا كلمة الاسلام ، وكل ما كتبه بعضهم كان عن محمد الانسان الذي حارب الاقطاع والاحتكار ، وحرر المستضعفين في مكة وغيرها ، وأرسى دعائم اقتصاد متطورحي في مجتمع الجاهلية الاقطاعي .

هذا هو الانحراف المشين .

ان حامل القلم في الشرق لا يفكر كثيراً فيعقيدته السمحاء.

انه يتحدث كثيراً عن سعادة الانسان – لامن خلال العقيدة السامية المرتبطة بالحب والخير والعدالة ، وبضمير الانسان المؤمن – بل من خلال تهويمات وثقافات مستوردة ، تنضح بالصراع الطبقي ، او الانحلال الخلقي ، أو التفلسف المريض المنغمس في الملذات المعربدة .

وجماهير الشرق هي الأخرى لم تزل تتخبط وتتعثر في طريقها الشائك ، تتنازعها الاتجاهات المنحرفة باسم الجنة الموعودة على الأرض وتتقاذفها أهواء بعض الحكام المتقلبين ،

ومشاكل لقمة العيش لم تزل متغلبة على مشاكل الأيديولوجيات ، والنقمة الكبرى – الاستعمار – لم يزل ينشر ظلاله الخبيثة في معظم بقاع الشرق ، ونجمة اسرائيل التي تهتز وتتأرجح في سماء فلسطين لم تزل تؤرق أمننا ، وتعكر صفونا ، ومؤامرات المستعمرين – بشتى مذاهبهم واتجاهاتهم – ما فتئت تثير القلق بين ظهرانينا ، وتعوق ركب التطور والصعود وايضاح الحقائق ..

* * *

تلك هي صورتنا وسط عالم تتقاذفه أنانية الفلسفات الفردية ، وأحقاد الفلسفات الجماعية ، وفي خضم هذه الحيرة القاتلة ، يجب أن يكون لنا موقف محدد واضح السمات ، بارز الملامح ، موقف يجلو شخصيتنا ويدعمها ، ويجب ان يكون لنا طريق سويّ مضيء لا تكتنفه النداءات المجنونة ، ولا تحفه الدعاوي الكاذبة او المؤامرات الدنيئة ، ولا بد لنا من تخطيط فكري وسياسي واجتماعي ، ينصهر في بوتقة عقيدتنا السمحاء – الاسلام – وآمالنا النابعة من قلوبنا وارواحنا ، وفهمنا الواعي لمشاكل عصرنا ، وتراثنا العريق وثقافتنا الحية المتطورة .

وإذا كانت أوربا والروسيا وأمريكا قد خاصمت الدين في واقع الأمر ، أو عزلته في الكنائس والصوامع ، فكان من جراء ذلك ضياع .. وقلق سادا ارجاء العالم الحديث ، وانحدرت

ـ بالتبعية ـ شعوبنا هي الاخرى الى نفس الهاوية ...

وإذا كانت التجربة العلمانية الجافة قد حققت انتصارات علمية باهرة ، وكفلت شيئاً من الماديات للانسان ، وإن تجاهلت أشواقه الروحية .

إذا كانت هذه التجارب كلها قد جلبت كثيراً من الأسى والشقاء حينما تجاهلت الدين ، وسخرت منه ، وأنعمت عليه بلقب « الطفولة » ...

اذا كان كل ذلك قد حدث .. فلا اقل من أن نرفع اصواتنا بكلمة الاسلام .. كلمة الله .. وحينما نهتف بها مصرين ، لن يكون ذلك عن حماسة طارئة ، او عصبية بلهاء مستقرة في تكويتنا الفكري ،وانما نهتف بهابعد تجارب مريرة دامية خاضتها الشعوب والأفراد ، نهتف بها لأنها ستنقذنا من أنانية الفلسفات الفردية ، وتحمينا شر أحقاد الصراعات الطبقية ، والأجهزة الادارية المنحرفة في دنيا الفلسفات الجماعية .. الفلسفات التي تحطم بقبضتها الحديدية الملتهبة الحب والسعادة والسلام ...

نهتف بها لأن الاسلام يؤمن بالانسان كفرد ، ويؤمن بالجماعة ككيان مرتبط متناسق الخطى ، متجاوب الآمال مع أفراده أجل .. يؤمن بالانسان ويرفعه حتى يصير العبد « ربانياً» .. ويؤمن بالجماعه ورباطها الوثيق ، ويعطيها صفة كبيرة هي صفة « الاخوة » .. تلك القوة السحرية التي تجمع القلوب على معاني التضحية والحب والفداء ..

والإسلام حينما نادى بالحرية ، لم يقصرها على رجاله والمؤمنين

به ، والداعين اليه .. ولم يجعلها حرباً عواناً على الدول الضعيفة المستذلة ، كما فعلت انجلترا أو فرنسا ، ولم يعطها للبيض دون السود كما تفعل أمريكا بزنوجها .. والاسلام حينما نادى بالحرية لم يرفعها كشعار أجوف أو صوت طنان لا حقيقة وراءه ، ولا مدلول له ، ولم تكن الحرية في الاسلام حرية لون أو جنس او طائفة من الطوائف ، بل كانت شاملة معبرة عن كرامة الآدميين وأشواقهم ..

أجل نهتف بالاسلام لأنه لا يحارب العلم بل يؤاخيه ، ويطلق له حرية التجربة والاكتشاف من أجل حرية البشرية ، ويؤمرنا أن نجدّ في البحث عنه « ولو في الصين » ..

أجل نهتف بالاسلام لان جوهره وتجاربه منذ فجر الدعوة لم تقف حجر عثرة في سبيل التطور والتقدم والانطلاق في مجالات العلم والمعرفة والفن والسياسة والاقتصاد ، في سياج من أوامر الله ونواهيه ، وتحت اشراف الضمير المؤمن الحي الذي لا يمالىء أو ينافق أو يكذب ..

أجل نهتف بالاسلام لأنه التجربة الانسانية الوحيدة التي حققت السعادة للمخالفين والأصدقاء ، للمسلمين وغير المسلمين عند مشرق الدعوة وفي سنواتها الأولى ..

نهتف بالاسلام لأسباب كثيرة .. وكثيرة جداً ...

ونهتف بالاسلام اولاً وأخيراً لأنه كلمة الله الأخيرة الى الناس .. الى البشر كافة ..

الفصل الثاني

لماذا انحط الإسلام

هناك أخطاء بشعة وقع فيها هذا العصر الحديث ، وقد جرّته هذه الاخطاء الى كثير من الآلام والتضحيات والمآسي ، ولم يستطع التفوق المادي ان يمسح هذه الاخطاء أو يخفي سوءاتها ، فلسنا من الغباء والعماء بحيث نغلق أعيننا عن الحروب التي يحوكها الطمع والاستغلال ، وعن الملايين الذين تراق دماؤهم دون عقيدة نظيفة أو مبدأ سام .

وليس من المعقول ان تصدر هذه الاخطاء عن سذاجة وجهل ، لأن مثل هذا التصور هو السذاجة بعينها ، وما نسميه نحن اخطاء – من وجهة النظر الاسلامية – قد يعتبره سكان العالم المتمدين تطور وحرية وانسجاماً مع المفاهيم العصرية ، واستجابة للقيم الجديدة ، إنها اخطاء توشك ان تأخذ – ولعلها اخذت فعلاً – صورة الحقيقة والانصاف والترقي ، وهنا بيت الداء .

لقد حاول مفكرو العصر أن يبرروا هذه الأخطاء ، بل انها قد اتخذت ثوب الفلسفة والدراسة ، أي انها نبعت عن دراسة حرة ، ومن ثم لم تعد أخطاء ، بل هي شعار للحرية

الجديدة ، أو مهارة في السلوك والاستفادة والكسب والاستمتاع بمباهج الحياة في أروع صورها ، ولو كان ذلك على أكتاف العبيد المعذبين ، وعلى حساب الدول المستعبدة الضعيفة ، ولو كان ذلك ازهاقاً للمثل العليا ، والمبادىء السامية التي أقرتها الأديان ، وباركها الله ، واعترف بها النظفاء المعتدلون من رجال الفكر والفلسفة .

بهذا انتصرت الفلسفات المنحرفة ، وبهذا انقلبت المعايير الخلقية والسياسية ، ووجدت لها من يؤمنون بها ، ويعتنقونها في تمسك واصرار حتى في انحاء العالم الاسلامي ولم لا ؟ الم ترد هذه « البضائع الفكرية » من بلاد متحضرة سابقة لنا في مضمار الرقي والتمدين؟؟ واستطاعت عقد النقص التي تحكمنا – لما ألم بنا من تأخر وانحطاط – ان تمهد لها السبيل ، وتُمَكِّن لها في أرضنا ، ومتى كان « للتلميذ » المبتدىء الخاوي العقل ان يعارض « استاذه » ويسخر من علمه وافكاره في الوقت الذي لا يملك فيه التلميذ شيئاً من هذا كله ، ولم تتح له الظروف ان يفتح عينيه على ما تحت يديه من فكر وتراث وعقائد بعد أن تكدس فوقها التراب ، وأغرقها النسيان واللهو والخمول في أعماق مجهولة ؟؟ (1)

وهكذا انتصر الغربيون عندما استطاعوا ان يصنعوا فكراً

---

١ – فكرة كومنولث اسلامي للمفكر الجزائري مالك بن نبي

جديداً ، وأن يدعموا هذا الفكر بالدليل والدراسة والتمحيص، وان يحولوا هذا الفكر الى المعامل والمصانع فيكشفوا ويخترعوا ويحققوا الانتصارات المادية التي بهرت الأنظار والعقول ،فسلمت بكل شيء جديد ، وآمنت بالغث والثمين ، والصالح والطالح ، وجدّت وراء البريق الجديد ، حتى لكأن الانتصار المادي يتبعه بالضرورة الانتصار في عالم الأفكار الاجتماعية والعقيدية والسياسية . والحقيقة التي لا يمادى فيها أحد أن الفلسفات الحديثة أغلقت جانب الروح وآمنت به ، ونسيت الله وكتبه ، ولم تعد تؤمن بغير العقل وسطوته وسلطانه ، وفي العقل وحده لا شك مجال للشطط، وفرصة للانحراف والضياع، ونحن نكرر اننا لا ننكر سطوة العقل ومجالاته الرائعة ،وانتصاراته الجبارة، لكن المسألة مسألة توازن عقلي ونفسي وروحي ان الاعتماد على العقل ، والانكباب على كفاءته ، سوف تؤدي الى تضخمه وانبعاجه في الوقت الذي سوف تضمر فيه قوى النفس والروح، وهي عناصر هامة وحيوية وضرورية في بناء الانسان في تكامل كيانه وذاته .[1]

وكان من جراء ذلك أن أصبح الكثيرون من المفكرين لا يؤمنون بغير المحسوس ، فانهارت في عقولهم وضمائرهم كلمات الله ، وعقائده السامية ، وكتبه المنزلة ، وانبياؤه المعصمون ،

---

(١) رأي الاستاذ محمد قطب .

فساد الجفاف علاقة الفرد بالفرد ، والدولة بالدولة ، واصبح العالم ميت الضمير ، خرب الروح ، فغلبت الأنانية والجشع ، وكثرت الخلافات والحروب ،واهتزت المعتقدات في قلب الانسان وعقله ، فيأس من الحصول على السعادة التي كان يحلم بها ، وهذا أكبر دليل على فساد الخطة التي ينتهجها البشر ، فقد اختلت معايير السعادة والأمن وراحة الضمير ، بعد ان افتقد التوازن بين الروح والنفس والجسد ، ونحن لا نحاول ان نمزق الانسان ، ونجزئه الى روح وجسد ونفس ، وإنما هو كل لا يتجزأ ، تنبض فيه شتى المشاعر والنزعات والرغبات وفيه أشياء تقع تحت أشعة العقل ، واشياء اخرى فوق استطاعة العقل وقدرته ، ولا شك ان هذه الاشياء النابعة من اعماق الانسان تختلط فيها رغبات جسده ، واهواء روحه وهمسات نفسه .

ولم يكن غريباً بعد ذلك ان تصدر الصحف العالمية والمحلية تتحدث عن علماء روسيا ، وكيف أنهم بعد أن حققوا الكثير على الانتصارات العلمية وبعد الكثير من التجارب العديدة ، أعلنوا أنهم يؤمنون بقوى روحية تسير العالم ، يؤمنون بوجود إله منظم لهذا الكون ، مدبر لشؤنه ... فلا مناص اذن من العودة الى الدين ..

ليس هذا فحسب .. بل لا مناص أيضاً من ان نحتفي بالانتصارات العلمية ، والتفوق المادي الذي حققه العصر الحديث ..

بذلك يعود الانسجام والتوازن الى ضمير الانسان ، والى شعوب العالم ، الى الأفراد والجماعات على حد سواء .. وقد كتب المفكرون المسلمون كثيراً ، وأعادوا القول في ان الدين الاسلامي لا يزهد في الدنيا ، ويبغض فيها ، بل ان الاسلام يسير على مبدأ سام معتدل « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ، والقرآن يقول : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وهكذا الاسلام مؤامة بين الروح والجسد ، واستمتاع شريف ، مقترن بالحياة الدنيا ، واجتهاد وتذكر للحياة الآخرة ، وكان ان نتج عن ذلك ، منهج للحياة معتدل لا تطرف فيه ولا تزمت .. « ان هذه الوسطية التي جعل الله المسلمين عليها حين تنزلت عليهم رحمته بهذا الدين ، هي التي جعلت — أو من شأنها أن تجعل — المسلمين شهداء على الناس كما تقول الآية الكريمة ، اي أن هذه الشريعة بما فيها من أحكام معتدلة متوسطة ، وبما فيها من مبادىء قويمة ، ومثل عالية ملائمة بين طبيعة الانسان ، وما يجب ان يتكمل به ويسمو اليه ، من شأنها ان تكون امة خيّرة متوسطة مستقيمة على الجادة لا انحراف لها في شيء من الاشياء الى طرف ، ولا التواء لها في أمر من الامور عن الصراط السوي فهي أمة لها طابع الاعتدال ، قد مرنت عليه حتى أصبح سليقة لها ، وشأناً من شؤونها المميزة ، وصلحت به لأن يكون أمر القيادة والتوجيه الى **المثالية والواقعية** ، وأن تكون أحكامها

هي الفيصل حين يختصم الناس في المبادىء والمثل »[1] .. وقد يفهم البعض ان هذا الاعتدال ما هو إلا حيلة العاجز الذي قد توقعه الحيرة بين رأيين مختلفين ، او اتجاهين مضادين فيفكر في هذا ،ويمحص ذلك ،فلا يكاد يصل الى أحدهما ،فيحاول ان يخلص من حيرته ، وأن يقضي على قلقه ، فيتجنب الوقوع في أحدهما ومن ثم يأخذ بنصيب من هذا وبنصيب من ذاك ، ويستخلص من الرأيين رأياً ثالثاً يوفر عليه المشاق والمتاعب حتى لكأن التطرف ذات اليمين أو ذات اليسار أمر لا بد فيه ، لكن هذا التصور عملية خاطئة متوهمة وخاصة لو أدركنا أن اعتدال الاسلام معنى سابق وثابت ومجرب ..

إنه معنى سابق حيث أنه كان حينما لم تكن تلك الفلسفات الحديثة قد تفشت في العالم بعد بصورتها الراهنة المدعمة بالانتصارات المادية ..

ثم انه معنى ثابت ، حيث لم تستطع الأزمات العنيفة ، والتيارات المتضاربة ان تهز من أساسه أو تنال من صحته وقوته وخلوده ولم يستطع عبث العابثين ان يطمس معالمه ويؤول مبادئه المشرقة الوضاءة التي لا تنطفىء ..

ثم انه معنى مجرب « ترجمته سيرة الرسول ووقائعه ، وأبانت عنه سياسة الخلفاء الراشدين ، وعبر عنه سلوك شعوبهم ،

---

(١) وسطية الاسلام صفحة ٨ تأليف محمد محمد المدني .

وكانت الدولة الاسلامية الأولى تجربة عملية معجزة حين قامت من بطن الصحراء قبائل متنافرة ممزقة ، فجمعت شتاتها ولمت شعثها ، وخلقت أقوى دولة ، وأعدل حكم ، وأنظف سيرة عرفها التاريخ في وقت قصيراً جداً ..

هذا الاعتدال الاسلامي استطاع ان يسير في سلم متدرج واضح السمات والمعالم ، فبدأ بالتوازن النفسي في ذات الفرد المسلم ، ثم كيان الجماعة ، وبلغ التوازن في تنظيم الاستقرار العالمي والسلام العالمي .[1]

واستطاع بذلك ان يحقق التوازن النفسي – كما قلنا – حينما لم يغفل جانباً من جوانب الكائن البشري ، فكان المسلم الحق انساناً يأكل مما طاب ولذ من الطعام دون اسراف ، ويؤدي فريضة الصوم دون اضرار بصحته ، وينام ويعمل ، ويستمتع ويجد ، ويحارب اذا لم يجنح أعداؤه للسلم ، وينعم بالرغد والسلام اذا لم تؤرقه الأحداث ، أو يعتدي عليه معتد ..

واستطاع ان يحقق التوازن الجماعي أيضاً حينما أقام علاقات المجتمع على أساس من الأخوة الوثيقة الحانية المتعاطفة ، فلا يجوع انسان بين قوم متخمين ، ولا يعرى وغيره يرفل في الحرير والصوف ، وألا يتلظى بنار الظلم والاضطهاد لقصور في منزلته الاجتماعية ، ويستغل ويستبد لسلطة وهبت له « مثل المسلمين في

---

(١) الاسلام والسلام العالمي (سيد قطب) .

توادهم وتراحمهم كمثل الجسدالواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

واستطاع ان يقر أصول الاسلام الدولية على اسس ثابتة من العدل والاخاء والعطف « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » والأعجب من ذلك ان قصة العهود والمواثيق أو المعاهدات التي عقدها الرسول مع جيرانه والتي مارسها من بعده الخلفاء الراشدون أيضاً ، كانت مثالاً يحتذى في حفظ الجوار وصفاء السريرة ، واحترام حقوق الانسان [1] هذا الاعتدال الرائع كانت عبقرية ناجحة نالت من الثبات والصدق والاسبقية ما لا يحلم به أي مذهب من المذاهب الاجتماعية أو السياسية ، واستحق بذلك الاعجاب والخلود . هذه هي أفكارنا نحن المسلمين .

وتلك هي افكارهم المضطربة - افكار الغربيين — التي ألمحنا اليها في أول هذا الفصل ، وما فيها من اخطاء حاولوا ان يفلسفوها ويبرروها .

* * *

فما هو دورنا نحن المسلمين ازاء هذا الصراع الفكري العالمي ؟

إني في هذه الرسالة الموجزة أهيب بجموع جماهيرنا ان تؤمن بلون من الاتحاد بين الشعوب الاسلامية .

---

(١) الاسلام والسلام العالمي (سيد قطب) .

وهذه مهمة كبرى .

لكنها مهمة صعبة .. وممعنة في الصعوبة .

وصعوبتها تكمن في أنه ليس لدينا تيـــار فكري اسلامي يقف على قدم المساواة إزاء التيارات الفكرية الوافـدة ، والتي تتحكم في مصير العالم .

وتيار الفكر الاسلامي بذرته كامنة ، وخميرته موجودة . لكن دعاته قلة محصورة محدودة قصيرة اليد .

وحينما اقول ان التيار الفكري الاسلامـي ليس موجوداً ، لا أقصد بذلك انعدامه ، وانما ، اعني « فاعليته » ، وانتشاره على أفواه الجماهير ، والدعوة إليه في إلحاح ، وإثارتـه في شتى الفرص والمجالات والمحافل المحلية والدولية .. ويثب الى ذهني سؤال : ما السبب في خفوت هذا التيار أو انعزاله ؟ وما السبب في عدم فاعليته ؟؟

وأول هذه الأسباب يكمن في الظروف التاريخية التعسة التي مرت بها شعوب العـالم الاسلامي ، فقد تيقظت هذه الشعوب فوجدت نفسها ترسف فيأغلال الاستعمار الغربي العنيد، وتتلظى بنار العسف الداخلي والخارجي ، يقعد بهـــا الجهل ، ويعوقها الفقر، وترهبها إمكانيات العدو، وتبهرها اكتشافاته وانتصاراته العملية والحربية والسياسية ، وفتحت شعوب العالم الاسلامي عيونها فرأت اول ما رأت وسائل المستعمر .. وسائله الـــتي

انتصر بها ، وفرض سلطانه ، وأقام مجده.. وآمنت ان الوسائل التي انتصر بها العدو هي نفس الوسائل التي يجب ان تتسلح بها لتنتصر عليه ، وأنساها حبها للحرية والخلاص ، شيئاً هاماً كان يجب ان يكون إحدى وسائل حريتها وخلاصها وعنصراً عظيما من عناصر نهضتها ، وعاملاً خطيراً من عوامل تمييزها والحفاظ على ذاتيتها وشخصيتها .. نسيت إسلامها .. أغمضت عينيها عن الأساس الفكري والعقيدي الذي يجب أن يكون قاعدة أساسية لانطلاقها ، وركناً أميناً تركن اليه وهي تبني مستقبلها، وتدعم شخصيتها .. والغريب ان زعماء التحرر والداعين الى الخلاص في كل بلد اسلامي كانوا من رجال العقيدة ، واستغلوا الحماسة الدينية في أيقاظ جماهيرها ، ودفعها في طريق النضال المرير ، ولكن هناك طائفة من المثقفين والانتهازيين عرفوا كيف ينتهزوا الفرصة، واستطاع الاستعمار الذي شربوا من ثقافته وفلسفاته ان يحتلهم فكرياً في الوقت الذي كان يحمل فيه عصاه ويرحل ، وكان أوضح مثل لهذا الشطط التاريخي السيء الاثر هو باكستان، فقد رأى الانجليز ابان حكمهم للهند ان التيار الديني ، والشعور الاسلامي هما العقبة الكبرى التي تؤرق أمنهم ، وتجلب لهم القلق والاضطراب، وتأكد لهم هذا الظن بعد ان استطاعوا ان يستميلوا الكثيرين من الهنادك الوثنيين ، في الوقت الذي قام الجيش الاسلامي فيه بثورة كبرى مشهورة هي ثورة ١٨٥٧ ، ولهذا يقول دوق ولنجتون ، حاكم الهند العام قبل هذه الثورة

« انه لا يمكن الاغضاء عن حقيقة جلية ، وهي ان الأمة المسلمة معادية لنا بعقيدتها ، فالبرنامج الحقيقي عندنا ان نبتغي مرضاة الهنادك .. » وكثيراً ما كان الانجليز يستولون على املاك المسلمين ويعطونها للهنادك ، وكثيراً ما كانوا يعزلون الموظفين المسلمين ، ويعينون بدلاً منهم الهنادك [1] . أقول كانت الباكستان مثلاً لما نراه في تنامي المسلمين للاسلام كقاعدة لانطلاقهم وتحررهم ،فقد تكوّن حزب الرابطة الاسلامية بقيادة محمد علي جناح ، فرفت من حوله قلوب المسلمين ومشاعرهم ، واستعادوا ذكريات أيام الاسلام الاولى ، ومجدهم الباذخ ، ومدينتهم الرائعة ، وطالبوا بدولة مستقلة -باكستان - وتحقق أملهم في الدولة التي يريدونها، وماذا كانت النتيجة ؟ لقد وثب الى كراسي الحكم طائفة من المثقفين - المسلمين اسماً والغربيين فكراً وسلوكاً - واصبح في يدهم الأمر والنهي ، وتجاهلوا القاعدة الأساسية، تجاهلوا العقيدة السمحة التي كانت هي الصوت الداوي الذي تجمع حوله مسلمو الهند ، وحاولوا بإرهابهم ووعيدهم ان يسكتوا صوت الاسلام.

ولكن الى حين ..!

ولا اريد ان استطرد في ضرب الأمثلة التاريخية في هـذا الموضوع فقد افردت كتاباً خاصاً عن دور الدين في الحركات .. التحريرية في العالم الاسلامي ارجو ان يكتب الله لنا التوفيق في

---

١ - تاريخ الاسلام في الهند ص ٤٠٦ - ٤٠٧

الانتهاء منه ان شاء الله .

اقول لم تنتبه شعوب الاسلام — وهي تحاول الخلاص من نير الاستعمار — الى القاعدة الأساسية — الاسلام — لتتخذها كنقطة انطلاق ، فكان عليها بالضرورة ان تسرع في ايجاد أية قاعدة ترتكز عليها ، وكان أقرب الى تصورها وفهمها القاصر الأساس الذي نبعت منه بنادق العدو وفلسفاته وطائراته وقوته ، حتى وجدنا استاذاً كبيراً مثل الدكتور طه حسين في مصر ، يدعو في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » إلى الأخذ بكل ما لدى الغرب من غث وثمين دون تفرقة او تمييز ، واستطاع هؤلاء المفتونون بالغرب وحضارته — على علاتها — ان يتربعوا على كراسي الحكم وان يملكوا المصير والمال والأقلام والصحف ، ويملأوا رؤوس الشباب بأفكارهم ، وتمادوا في دعوتهم تلك - عن قصد ولغير قصد — حتي ملأوا بها الأدمغة الفارغة ، واشبعوا بها القلوب الخاوية ..

واوشكنا ان نفقد بذلك تراثاً غالياً عزيزاً علينا .

بل نفقدعنصراً هاماً منعناصر حياتنا،ومقوماتشخصيتنا .

وادرك المستعمر الخبيث ، نقطة الضعف هذه ، فحاول أن يغير من أسلوبه في السيطرة والاستغلال ، فحول الغزو الحربي الى غزو فكري ، وكان هذا التحول أخبث مرحلة من مراحل الاستعمار ، فاستطاع بدهائه ان يغلق في وجوهنا منافذ الثقافات التي تعاديه أو تنافسه ، وفتح الباب على مصراعيه لثقافته هو ،

وساعده في ذلك بعض الحكام اللاهين المخدوعين ، وماذا ننتظر من رجل كفاروق تلقى تعليمـــه في مدارس لندن ، وتشرب ثقافتها ؟ أكان من المعقول ان نصدقه حين اطلق لحيته ، واطلق على نفسه الملك الصالح حامي الاسلام وسليل النبي؟؟ وما حدث لفاروق حدث لفيصل وغيرهما ..

هذه واحدة ..

اما السبب الثاني الذي نراه قد ادى الى ضعف التيـــار الاسلامي وانحساره فهو المشاكل التي نجمت بعد انقضاءالاحتلال العسكري لدول العالم الاسلامي.. لقدورثت الشعوبالاسلامية تركة مثقلة بالمشاكل والمتاعب والمآسي ، وكانت كل مشكلة تبدو في ظاهر الأمر وكأنها الأجدر بالرعاية والاهتمام ويجب أن تبحث لها عن حل أولاً وقبل كل شيء ، ولم تفكر حكومات العـــالم الاسلامي ولا مفكروه – أغلبهم – في النظر الى تلك المشاكل العديدة كوحدة واحدة ، فكانت نظرتهم اليهـا نظرة جزئية بحتة ، واستطاعت تلك النظرة ان تبعث التمزق او التفسخ في المخطط للعام للنهوض من الانحطاط ، ولو استطاعت هذه الدول ان تربط مشاكلها بالمفـاهيم العقيدية ، وتعقد الصلة بين الاسلام – كنظام حياة متكامل – وبين هذه المشاكل لأمكن حلهـا .. دون إضاعة هذه الطاقات الروحيه الجبارة ، ودون اخمـــاد لصوت الاسلام الداوي منذ مئات السنين ..

أرادت شعوب الاسلام ان تقضي على البطالة والفقر ، وان

تعطي الخبز لكل جائع ، وتحمي نفسها بجيش كامل العدة وتبني المدارس والجامعات ، وفي هذه الأثناء وقع الكثير من الارتباك والخلل ، كانت هذه الحكومات تريد ان تنظم اقتصادياتها في ظل الأقطاع ، وتحكم الرأسمالية ، واستغلال الطبقات الدنيا ، وأخذت الثروات تتضخم في يد طبقة واحدة ، ومشكلة الجماهير الغفيرة في الحصول على لقمة العيش لم تحل الا حلولاً جزئيـــة مبتورة ، وساعد الاستعمار بوسائله الخبيثة أن يدعّم هذا النظام الفاسد ، وأن يرسم خطط الحصارات الاقتصادية ، وظل محافظاً على أسواقه ، مدعّماً لأذنابه والمتشربين لأفكاره . ولو التفتت دول الاسلام الى قاعدتها العقيدية ، لوجدت فيها ما يعطيها القوة لكي تحقق قول الله في المال « لكي لا يكون دولة بين الأغنيـاء منـــكم » ولو وجدت فيه « ان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشروهم بعذاب أليم » وبالاختصار لو ان شعوبنا تمعنت قليلاً ، ونظرت في تراثها ، ورجعت الى إسلامها الحنيف ، وجعلت مبادئه تواكب نهضتها وتسير معها جنباً الى جنب ، لنعمت في ظله ، ولسلمت من تيارات الصراع الطبقي ، والاحقاد التي تتلظى في صدور المحرومين والمعذبين ، ولما خسرنا تلك الخسائر الفادحة ..

هذا هو السبب الثاني .

اما السبب الثالث فهو أن الاستعمار لم يسلم لنا بحرياتنا بسهولة ، ولم يرفع الراية البيضاء ويتخلى عن أساليبه الخبيثة وهو يحمل متاعه ويرحل عن ديار المسلمين ، فقد بدا في الظاهر أنه

قد هزم ، لكنها كانت هزيمة من الشكل لا من حيث الموضوع ، فقد ترك في كل بلد اسلامي مشكلة عويصة الحل ، مشكلة ترتبط بكيان الدولة وتعتبر جزء من حرياتها ، فمثلاً لم يغادر الهند الا بعد ان وضع أساس تقسيمها الى هندوستان وباكستان ، ليس هذا فحسب ، بل خلق مشكلة كشمير خلقاً ، وجعلها كارثة تهدد سلامة الدولتين وتمنع تقارب وجهات النظر بينهما ، بالإضافة الى أنه جعل باكستان شرقية وغربية . .

وفي الهند ترك مشكلة جوا البرتغالية التي لم تحل الا بتحكيم السلاح والصدام العسكري ، وفي اندونيسيا مشكلة ايريان الغربية ، ومن قبل خلق مشكلة لواء الاسكندرونه ، بين سوريا وتركيا ، وفي مصر خلق مشكلة السودان ومياه النيل ، وحاول أن يورث العداء بين البلدين الشقيقين . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد اوجدت في الجزائر مشكلة فريدة من نوعها هي مشكلة المستوطنين الفرنسيين في الجزائر ، بل بلغ في طغيانه ومزاعمه مرحلة صفيقة حينما زعم ان الجزائر أرضاً فرنسية ، وأخذ يضفي على أتباعه من الخونة غير الفرنسيين الجنسية الفرنسيه وكان الاستعمار قمة في ظلمه وتعسفه حين حاول ان يقضي على اللغات القومية لتسود لغته وثقافته هو . وقس على ذلك معظم البلدان الاسلامية الأخرى فقد خلق فيها صعوبات تتعلق بالحدود لا تنتهي ، وحاول ان يقسم الدولة الواحدة الى دويلات صغيرة متناحرة متنافسة ، وأوجد في كل جزء من أجزائها تيارات سياسية متناقضة ، واتجاهات فكرية متصادمة : فحرك أذنابه

في الأرض كي يتخذوا مواقف عدائية ضد الجمهورية العربيـــة المتحدة مثلاً ، ويحاربوا وسائل التحرر والتجديد والاصلاح فيها.

وكانت هذه السياسة الخبيثـــة تخطيطاً عاماً في الفكر الاستعماري ولهذا رأينا – في غير العالم الاسلامي – ما يسمى بمشكلة المانيا الشرقية الغربية ، وكوريا الجنوبيـــة والشمالية ، وفيتنام الشمالية والجنوبية والصين الشيوعية والصين الوطنية ، والكونغو البلجيكية والكونغو الفرنسية ..

صعاب لا تنتهي ، ومؤامرات لا تتوقف ، وصراع مفتعل سخيف ، يبتلع أمن الدول وسلامتها ، ويستنفد طاقاتها ومجهوداتها ، ويهددها دائماً بالخطر ، ويجعلها تترقب أن تنفجر براكين الحروب والدمار في أي وقت ، ولو لم يخلق الاستعمار مثل هذه التعقيدات ، لاستطاعت دول العالم الاسلامي ان تنظر في امورها في ترو وعلى هدى وبصيرة ، ويساعدها ذلك على أن تحيى في ظل الأمن والاستقرار ، ولعادت الى تراثها الخالد ، وقيمها الروحية والعقيدية ، واستلهمت منها العون والرشاد ، وخطت له خطة سليمة ، ورسمت لنفسها منهاجاً مستقيماً..

قد نستطيع ان ننحي هذا جانباً .. ولكن من في العالم الاسلامي من طنجه الى جاكرتا يستطيع ان يتجاهل كارثـــة الكوارث ، وعار الأبد .. كارثـــة .. فلسطين ، وقيام دولة اسرائيل ؟؟ هل يتصور عاقل ان يخلد العالم الاسلامي الى الراحة والسلام ، ومأساة فلسطين ماثلة في الأذهان ، واضحة للعيان ؟؟

لقد أصبحت اسرائيل دولة .. أجل دولة أقامهـــا الخبث الاستعماري وجعلها قرحة مزمنة لا أمل في شفائها إلا بالاستئصال او البتر ، إني لا أشك لحظة أن اسرائيل أخطر وأعلى مراحل الاستعمار ، وكثيراً ما اتساءل منذ سنوات كيف يبيح الضمير العالمي لنفسه تحت تأثير الدهاء الاستعماري ان يوافق على قيام هذه الدولة ..؟؟

الحقيقة ان سلامة العالم الاسلامي ووحدته لن تتحقق على الصورة المثلى التي نؤمن بها في وجود هذه الدولة ، ولا أنكر ان اقتراب وجهات النظر الاسلامية ، وتآزر دولنا في المجـــال السياسي والحربي ، هي الوسيلة للقضاء على هذه الدولة ، فلا أمل مطلقاً ان تحل مثل هذه القضية على يد هيئة الأمم أو اية منظمة دولية أخرى ، لن تحلها المفاوضات ، ويجب ان نذكر دائماً ان قيام اسرائيل سرقة دولية في ظل مؤامرة دنيئة يجب ان نفهم هذا بادىء ذي بدء ، وأن يستقر هذا الفهم في أذهاننا ، وعلى هذا الأساس لن يكون هناك حل سوى ان يؤدب اللص وان تستعاد منه المسروقات ، أما كيف تقوم هذه العملية فهذا أمر لا يحتاج إلى ذكاء كبير ، فإن أشد ما يؤلم الانسان أن تكون القضية واضحة في الأذهان وحلها واضح تمام الوضوح ، ثم يكثر من حولها الحديث والأخذ والرد ..

* * *

ومن الأسباب الاخرى التي صرفت دولنا الاسلامية عن

الالتفات الى أساسها العقيدي ، وقاعدتها الدينية السمحاء مشكلة الاقليات ، والتفرقة الدينية .. لقد وجد المستعمر ان مصر قد قامت بثورة سنة ١٩١٩ الجبارة ، ففتش في حقائبه عن أكذوبة اخرى يبرر بها تعسفه وتدخله السافر في شئون البلاد، كي يضرب الثورة في الصميم . فزعم ان بمصر اقلية مسيحية يخاف عليها من تحكم الغالبية المسلمة .. اجل .. هكذا قالوا ليبرروا تدخلهم ، وليضربوا وحدة الأمة في الصميم في نفس الوقت ، وكادت هذه الفتنة ان تعمل عملها ، وتفصم عرى الود والاخاء بين طوائف الأمة ، وكان أبلغ رد عليها ان وقف زعماء الثورة – مسلمين ومسيحيين – صفاً واحداً ، وصاحوا بصوت واحد ان اخرجوا ايها المستعمرون من بلادنا ..

وهنا نقطة هامة لم تلتفت اليها شعوبنا ، هذه النقطة تؤكد انتصارنا الظاهري ايضاً وان كنا قد خسرنا الكثير، فقد حاول مفكرونا وقادتنا ان يثبتوا بصورة لا تدع مجالاً للشك انهم مواطنون اولا وقبل كل شيء، وان الدين مسألة شخصية، وانهم لا يفكرون في ان يقيموا دعائم نهضتهم ونظامهم التحرري على اساس من الدين .. وكان هذا التفكير الساذج بداية سيئة بالنسبة للاساس الاسلامي الذي يجب ان تقام عليه دعائم نهضتنا ..

ليس عيباً ان نكون مسلمين ..

وليس انحرافاً ان نؤمن بالدين كقاعدة انطلاق ، وطريقة سلوك، ونظام حياة ينظم علائق الفرد بالفرد، والحاكم بالمحكوم

وان تعتبر مقاييسه هي الفيصل في الحكم على الأفراد والأشياء..

وليس تعصباً ان نخلص لعقائدنا ، ونحميها ونؤمن بها..

وليس قصوراً وتأخراً ان نستلهم تراثنا وتاريخنا ومُثلنا ..

وسوف تكون المشكلة –في ظل هذا الفهم - أبسط مما نتصور.

لو علمنا ان المسلم والمسيحي واليهودي وكل صاحب دين كلهم إخوة لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأن الإسلام يكفل لهم الحرية وتكافوء الفرص والعدالة ، وحماية نظمهم الشخصية، وتقاليدهم الدينية ، وهكذا كنا في التاريخ القديم والحديث ، ولن يكون تمسكنا .. بديننا معناه احتقار طبقة معينة ، أو عنصرا من العناصر أو جنسا من الاجناس ، والمشكلة عامة في كل دولة من دول العالم ، ففي كل ارض في الشرق أو الغرب توجد أقليات من مختلف الأديان والملل والأجناس ، ولم يكن هذا عائقاً لتلك الدول عن أن تتخذ لنفسها الطريق الذي ترضاه، وترسم لشعوبها النظام الذي يكفل لها السعادة والتطور ، ولم تفكر الأقلية في أي بلد حر ان تفرض رغبة خاصة ترغم بها مجموع الشعب على الرضوخ لمطالبها والسير في ركابها ، وبالرغم من ان امريكا قد قطعت شوطاً جباراً في مضمار التقدم المادي والفكري الا أنها لم تستطع ان تقضي على التفرقة العنصرية بين الزنوج وغيرهم ، والحمد لله الذي لم يوجد مثل هذه المشكلة في ديار العالم الاسلامي ، لأن احدى بديهيات الاسلام انه لا يفرق بين لون ولون ولا يحابي جنساً من اجل جنس آخر ، ولم يقس

تفاوت الأفراد بشيء من هذا بل جعل التقوى معيار التفاضل بين البشر : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » .. « ان اكرمكم عند الله اتقاكم ... »

في الحقيقة ان اثارة مشكلة الاقليات كانت « فخا » وقع فيه كثيرون من مفكرينا .. وكتابنا ، وبالرغم من انهم اثبتوا للمستعمر – بالفعل والعمل – انهم ابعد ما يكونون عن التعصب الديني ، الا انهم في خضم اخلاصهم الساذج ، ونواياهم الطيبة ، قد قصروا في حق دينهم ، واضاعوا طاقات جبارة ما كان احوجهم الى التشبث بها ، والتمسك بأهدابها ، والدعوة اليها في حرارة وصدق وايمان ..

لقد قامت اسرائيل كدولة يهودية .. على اساس من التعصب الديني ، وسمت نفسها باسم « اسرائيل » ، بل ان اسماء بلادهم ومستعمراتهم تتخذ اسماء لها صلة بالدين والتاريخ الخاص بهم ، ولم يحاول هؤلاء الغربيون ان يتهموها بالتعصب بل باركوها ، وحملوا لرئيسها القرابين ، وقدموا لها المعونات المختلفة من مال وسلاح وتأييد دولي .

* * *

ولم يقف تجاهلنا لديننا عند هذه الأسباب التي أوردناها ، بل هناك أسباب اخرى لها اهميتها ودلالاتها .. فقد كانت في الدول الاسلامية تيارات متجنية تزعم ان البشرية قد قطعت في مضمار الحضارة والفكر والتقدم شوطاً بعيداً يجعلها جديرة بأن

تستغني عن الدين ، وتفلت من اساره ، وتخلق لنفسها من العلم ديناً جديداً ، او من العقل الحديث نبراسا ينير لها الطريق وقد اسلفنا ان هذه فكرة غريبة ، استوحاها مفكرو الغرب من تاريخهم الملوث .

دينهم الذي تولى امره حفنة من الكهان والسدنة اساءوا التصرف ، ووصموا دينهم بالجمود والتوقف بما اقدموا عليه من تصرفات مشينة .. وزعم هؤلاء المفكرون في العالم الاسلامي ان واقع الحياة يفرض نفسه فرضاً ، وان الواقع الجديد يختلف عن التاريخ القديم ، ومن هنا تنبع فلسفات جديدة ، لها طابعها المميز الذي يتفق مع روح العصر ، وقد سألت احد المفكرين البارزين الذين يؤمنون بهذا الاتجاه ، في احدى الندوات الادبية :

– هل قرأت شيئاً كافياً عن الاسلام حتى تحكم مثل الحكم ؟

فصمت برهة ثم قال :

– في الحقيقة لم أفعل ..

فقلت :

– فهل ترى انه من الانصاف أن تصدر حكمك على قضية كبرى كهذه دون أن تدرس ولو الخطوط العامة للفكر الاسلامي؟

فقال :

– وما الداعي لهذا ؟؟ إنني أعيش في بيئة ... في واقع

حي .. وأنظر الى احتياجات هذا الواقع .. فأحاول تحقيقها..
ودراسة الاسلام لا تهمني عندئذ في شيء ..

فقلت :

– ألا يصح – اذا ما درست الاسلام – أن تجـــد في ثنايا نظمه ومبادئه ما يسد حاجة الواقع ؟

فقال :

– يجوز .

فقلت :

– ان القاضي النزيه يدرس قضيته من جميع أطرافهـا دون تحيز للمدعي أو المدعى عليه ، ثم يتخذ فيها رأياً سليما .. وكان عليك ان تسلم بهذه البديهية بادىء ذي بدأ ..

فهز رأسه وسكت ..

تلك حال مفكرينا الذين يملكون مصير التوجيه والتخطيط ويا لهـــا من كارثة كبرى !!. وليس العيب عيب المفكرين وحدهم ، وانما العيب يكمن أيضاً في حَمَلة الدعوة الاسلامية من العلماء المقصرين المنعزلين الذين لم يحاولوا ان يرتبطوا بالثقـافات الوافدة ويدرسوها ويفندوا مزاعمهـــا ، ويردوا هجوم الجهلاء وأنصاف المفكرين المفتونين بكل وافد من الغرب ، ان أكثر علمائنا ،ينشرون في مؤلفـاتهم ، ويلقون الخطب فوق المنابر وفي المحافل على وتيرة واحدة، يكتبون نفس الكلام الذي كتبه علماؤنا الاجلاء الأقدمون بنفس الصيغ والعبارات، حتى اذلك لا تستطيع

التفرقة بين كتاب وكتـــاب لكثرة التشابه في طريقة العرض والأداء ، والأحكام الاجمالية ، والدراسات الوعظية السطحية التي لا تكاد تشفي غليلا ، او تروي ظماً ...

وهناك طائفة اخرى من علمائنـــا المفكرين اكتفوا باطلاق الاحكام والآراء القوية ، وبالرغم من انهم قد اتوا بجديد ، وفتحوا مجالات مستحدثة للتفكير الاسلامي ، ونالوا شهرة واسعـة الا انهم لم يتطوروا بمنهجهم تطوراً عملياً ، اي انهم توقفوا عند حد الكتابة .. الكتابـة فقط .. لم يكونوا مفكرين « حركيين » يحملون رسالتهم ويخلصون لها ، ويسيرون بهـــا بين الناس ، ويدعون اليها في شتى المحافل والمنتديات ..

ان المبادىء ترتبط برجال يتحركون .

والمبادىء الباردة التي لا تجد من يشحنها بالنـــار والطاقة ويمشي بها في المحافل لا تجدى فتيلاً .

واغلب هؤلاء المفكرون كانوا ادباء اكثر منهم مفكرين اسلاميين ، فغلبت عليهم بالتالي صفة الأديب ولم يتصفوا بصفـة الداعية الاسلامي صاحب المدرسة .. وصاحب التلامذة والمبدأ والعقيدة .. وصاحب الخلق والسلوك الذي يستحق ان يكون مثلاً يحتذى ، وقدوة يقتدى بها ..

وهكذا لم يستطع المفكر « عباس محمود العقاد » ان يترك من الأثر ما تركه السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، برغم

ما للعقاد من طاقة فكرية عظيمة ، وموهبة فلسفية مدهشة .

لقد استطاع جمال الدين ومحمد عبده ان يخلقا في الشرق ثورة واحدة بل ثورات عدة ، وان يملآ العالم الاسلامي ضجيجاً لن يموت ، وان يلفتا نظر الغربيين والشرق الى كلماتهم القوية الثائرة وحججهم الدامغة البارعة ، وان ينقلوا قضايا العالم الاسلامي — كأمه لها ماض وتاريخ وتراث — الى أروقة الجامعات والمجتمعات الفكرية وصفحات الجرائد ، بعد ان كانت القضية قضية شعوب مغلوبة متأخرة : وشعوب غالبة متمدنة تستعمر وتحمل اللواء وتتحكم في مصير العالم .

* * *

ولم يكن العالم الاسلامي كله بهذا الغباء والتناوم والركون الى الدعة والكسل ، فقد تنبه بعض رجاله الى خطورة الامر ، حينما رأوا ان ظل الدين قد بدأ ينحسر ، وان اثره الفعال قد اخذ في الانعزال ، ومن ثم قامت بعض الجماعات الدينية وحملت لواء الدعوة الى الدين ، والعودة الى منابعه الصافية ، والتفاني في سبيل الحفاظ عليه والقضاء على الاستعمار ، والحصول على الحرية ، وبدا ان هذه الجماعات امتداد لصيحات الحرية التي نادى بها جمال الدين ومحمد عبده وغيرهما .. واندفعت هذه الجماعات يشعلها الحماس ويؤججها الشعور الديني الجارف ، واندفعت بعاطفتها اكثر مما اندفعت بعقولها وتفكيرها الواعي المنظم ، وكانت بعض قيادتها غير مستكملة لادوات الوعي السياسي

والفكري اللازم لمثل هذه الحركات الكبرى الهامة ، في وقت عاصف تلاقت فيه تيارات عدة ، ولعب فيها المستعمر الاعيبه المعروفة . فكان من جراء ذلك ان وقعت هذه الجماعات في اخطاء تتعلق بنظامها الاساسي ، وتتعلق بخطتهـا في السير والسلوك فأضرت بالقضية الاسلامية أشد الضرر ، وادت الى تعويقها ، واعطت الفرصة للاقلام الزائفة كي تنال من الاسلام وتشنع به ، وتصمه بما هو منه براء من انحراف وتمرد وتدمير واضطراب ..

* * *

وهذا يجرنا الى سبب آخر من اسباب البعد عن جوهر الاسلام ، وتجاهل عمله الاصيل في بعث شعوبنا ودفعها قدماً في سبيل الرقي والتقدم وهو نظم التربية والتعليم .. فحين تحكمت فينا قوى المستعمر ، كان بديهياً ان تحاول تدعيم سلطانها ، وتحمي نظمها الجائرة ، وذلك باحتلال العقول بعد ان احتلت لارض ، وحاولت جاهدة.. ان تبعدنا عن منابع ديننا النزيه، وتنحرف بنا عن تراثنا واجادنا ، وشاركهم في ذلك طائفة من المبشرين والمعلمين، فمكنوا للغتهم في الوقت الذي اخذوا يعيبون فيه على لغتنا وينعتونها بكل فساد ورجعية ، وافتعلوا بعض المشاكل - في اللغة العربية - مثلاً وحاولوا ان يجعلوا اللغة العامية بديلاً للغة الفصحى تارة ، كما دفعوا بعض الجهلاء للمناداة بكتابة العربية بالأحرف اللاتينية ، وقد نجحت دعواهم تلك في تركيا ،

اذ لم تزل اللغة التركية تكتب بالأحرف اللاتينية ، وفي بداية الأمر نحوا الدين جانباً ، فلم يعد يدرس في المدارس ، ثم تطور الامر فسمحوا بتدريسه على ألا يكون مادة اساسية فلا يمتحن فيها الطالب ، اي انها ليست مادة رسوب او نجاح ، في الوقت الذي كان يجب ان تكون هذه المادة مادة اساسية وتعطى اهمية كبرى حتى اصبحت حصة الدين فى المدارس معناها اللعب والفراغ وقضاء الوقت في الضحك والسخرية والتنكيت ، وجرى على السياسه « الدنلوبية » من اتى بعده من مخططي المناهج التعليمية من اهل البلاد الاسلامية ، وكان من جراء ذلك ان اصبح الطالب يعرف عن « جان دارك » و « نابليون » اكثر مما يعرف عن محمد صلوات الله وسلامه عليه وعن عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز وعن محمد عبده وجمال الدين الافغاني والامام بن سينا وبن تيمية وغيرهم .. واصبحت الدراسات الدينية محصورة في المساجد والزوايا والأضرحة ، كما انها قد تجمدت وفترت بعد ان انفصلت عن واقع الحياة ووقفت عن التطور ، وحوربت من المستعمرين والمفتونين بعالمهم ، ولم تعد سوى حواش وشروح وحواش للحواش ..

واصبح التعليم مجرد تعلم القراءة والكتابة ، والالمام ببعض مبادىء في العلوم والرياضيات واللغات لا ارتباط بينهـا وبين الحيـاة ، ولا تخلق من الطالب مفكراً حراً ، ولا تعطى فرصة للخلق والابداع .. لأن مهمة التعليم لم تكن تربية العقول وتدريبها

على تلقي الأصول الحضارية النظيفة واستيعابهـا ثم افراز الجديد من الأفكار والفلسفات .. اجل.. كان الغرض من التعليم تخريج طائفة من الموظفين والكتبة ، يعملون بأمر المستعمر،ويسيرون على هدى نصائحه ولم تتح الفرصة التثقيفية لغير فئة ممن تشربوا ثقافة الاستعمار وآمنوا بمثله واتجاهاته،وكذلك لأبناء الرأسماليين والاقطاعيين الذين يرتبط وجودهم ومكانتهم بالنظم الاجتماعيـة السائدة الفاسدة ، هؤلاء الذين لم يرج منهم اي خير ،ولم يكتبوا او يفوهوا بغير رغبات الاستعمار وافكاره .. حتى اولئك الذين استكملوا دراساتهم النظرية لم يتعدوا هذا الطور الى المجـالات العلمية ، فبقى الأمر والنهي والتوجيـه والادارة الفعلية في يد المستعمرين الاجانب ، واصبحت الاجازات العلمية بالنسبة لنـا مجرد شرف أجوف ، وكبرياء فارغة ، ووسام ميت يوضع على الصدر يستمد بريقه من السادة الحاكمين،ويحنى لهم الجباه شكراً وتقديراً في موكب العبودية البلهاء ..

وتبـع هذا اللون من التربية والتعليم ، نمط جديد من السلوك لغالبية المثقفين في العالم الاسلامي ، فأخذوا يتشبهون بالغربيين في تصرفاتهم ، ونقلوا عنهم طريقتهم في اللقاء والاجتماعات وقضاء اوقات الفراغ ، فالتوت السنتهم بكلمات افرنجية ، وتغيرت نظرتهم للأمور والأشياء ، وتبدلت آراؤهم في القضايا الخاصة بالأفراد ، وقضايا الجماعات ، اي اصبحوا قردة يأتون حركات ليست من طبيعتهم ولا تنطلي عليهم ، وصاروا ببغاوات تنطق

في غير فهم ، وتردد غير حديثها دون ادراك لمايحمل هذا التقليد الأعمى من فناء لشخصيتهم ، وضيــاع وذوبان في الشخصية الغربية المستولية عليهم .

ولم يعد غريباً بعد ذلك ان يصبح اداء الصلاة امراً غير مستساغ لا يأتيه الا الجهلاء والفقراء والمتأخرون ، وغدا صوم رمضان عبادة لا طائل تحتها ولا جدوى من ورائها ..

* * *

بهذه الاسباب وبغيرها – ايها الأصدقاء – انزوى الدين في ركن مظلم ، وانحسر مده ، وخمد صوته ، حتى اخذ بعض المثقفين المنحرفين يشيرون اليه وكأنه شيء انتهى امره وكأنه قضية قد حكم فيها الزمن ومنطق التاريخ، ومنطق العالم والحضارة الحديثة ... وبذلك تم الفصل نهائياً – في نظرهم – بين الدين والحياة ، واصبح مسألة تخص الفرد وحده ، ولم يعد قضية ترتبط بمصير الشعوب وتخطيطها للحياة ، وكان هذا الفصل بين الدين والحياة ضربة قاصمة، وكارثة كبرى حاقت بالعالم الاسلامي، وافقدته الكثير من مقوماته وعناصر وجوده ، وسر بقائه ..

لكن هل قضي على الدين ؟؟

هل قضي على الدين الذي كان ذات يوم « قوة غالبة » هزمت الطغيان والشرك ، وحطمت امبراطوريات الفساد والظلم ؟ ؟ ان الأستاذ العقاد يرى غير ذلك يؤيده في رأيه الواقع التاريخي

الحي ، وتؤيده الأحداث الجارية .. انه يرى ان القوة « الغالبة » في الدين رغم تدهورها، قد تركت ما يسمى « بالقوة الصامدة » .. القوة العزلاء التي حفظت الدين ، تلك القوة التي تكمن فيها المعجزة السماوية ، ويكمن فيها سر الله وارادته وحكمه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ..

يقول الاستاذ العقاد : — (١)

« ان العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب في ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ، ولا بد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لا بد من تفسير لتلك القوة الغالبة ،فان القوة التي تصمد اولى بالتفسير من القوة الغالبة ، لأنها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة ، في معترك الصدام والصراع . وصمود القوة الاسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال الشدة والسطو ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون ..

« ولقد تداولت الدول بقاع الارض من القرن السابع للميلاد الى العشرين : قامت دول اسلامية ثم انهارت امام المنافسين من أبناء دينها أو أبناء الأديان الأخرى ، وحدث في فترة من الزمن خروج المسلمين من أوربا الغربية ، ودخولهم الى أوربا الشرقية ،

---

(١) الاسلام في القرن العشرين ص ١٧ وما بعدها .

ودالت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقـــاهرة وقامت دولة الآستانة أو الإسلامبول ، ثم ظلت هذه الدولة وحدها كفوءاً للدول الأوربية مجتمعات، أو متفرقات ، حتى تداعت أركانها، وتصدع بنيانها وبقيت قائمة لاختلاف الطامعين في ميراثها على تقسيمها ، وتلاحقت الضربات على البلاد الاسلامية بين هزيمـــة واضطهاد ، وتمزيق وتفريق حتى تمكن منها المستعمرون فلم تبق منها واحدة تنعم بقسط من حرية الحكم وسيادة الاستقلال ،ومن كان منها مستقلاً كالدولة العثمانية او الدولة الايرانيـــة او الدولة الحسينية بالمغرب الأقصى ، كان افتيات المستعمرين على حقوقها أشد واقسى من افتياتهم على البلاد التي فقدت حريتها واستقلالها، وانقضى القرن التاسع عشر كله والأمم الأسلاميـــة مخذولة متخاذلة ، والدول المستعمرة غالبة متحكمة، وخيل الى الناظرين أن الحاضر والمستقبل جميعاً للاستعمار، وأنه قد جمع القوة والعلم والحضارة فلا نجاة من قبضته للذين حرموا القوة والعلم والحضارة وأصبحوا في كل منها عالة على المستعمرين ..

ثم انتهى القرن التاسع عشر فكيف رأى الناس منتهاه ؟؟

الاستعمار يتراجع ، ولا يظفر بغناء من سلطان المال والعلم والسلاح .. والاسلام تبرز له دولتان في آسيا عـداد المسلمين في كل منها يزيد على سبعين مليوناً ، وهما دولتا **اندونيسيـــا والباكستان** .. الخ » .

الى أن يقول الاستاذ العقاد :

« ان شمول العقيدة في ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة في العقيدة الاسلامية ، وهو المزية التي توحي الى الانسان أنه «كل» شامل فيستريح من خصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين ، ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .. »

* * *

ذلك هو المعنى الكبير ، والحقيقة الجلية الناصعة التي يجب ان تستقر في اذهاننا نحن المسلمين ، وهي أن ديننا حي لا يموت، وأنه اقوى من عوامل الهدم والفناء والتشكيك .. فمهما تألبت عليه قوى الشر ، وتعرض لأعاصير الانحراف والإلحاد والإنكار والاهمال ، فلن يخفت صوته ، أو ينمحي اثره « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي نفسهم حتى يتبين لهم انه الحق .. »

تلك الحقيقة الباهرة هي التي تقتل اليأس في نفوسنا، وتجعل الأمل في القلوب مشرقاً وضاء ، وتنمي الثقة في مستقبل رائع ، حيث يقوم عالم أفضل تنضوي تحت لوائه دول الاسلام ويومذاك يصبح العذاب والضياع والمروق من كلمة الله أسطورة من الأساطير ..

الفصل الثالث

نحو رأي عام إسلامي

ما هو الطريق لخلق رأي عام اسلامي ؟؟

وكيف نهيىء الاذهان والقلوب لقبول الفكرة الاسلامية ، والدعوة الى اتحاد اسلامي بين الشعوب الاسلامية ؟

وكيف نصير – فعلاً – كما قال الله جل وعلا .. « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ؟

هناك اصطلاح خطر لعب دوراً هاماً في تاريخ الشعوب الاسلامية الحديثة ، هذا الاصطلاح هو كلمة .. « التعصب » . كانت هذه الكلمة ، او التهمة يرمى بها كل من دعا الى الاسلام في صدق وألح في طلبه ، وأهاب بالجماهير ان تتمثل العقيدة تمثلاً دقيقاً .

والحقيقة ان أي مبدأ من المبادىء ، أو أية فكرة من الافكار الاصلاحية والفلسفية والاجتماعية لم تقف على قدميها ، ولم تنهض من جمودها وعدم فاعليتها الا على أيدي حفنة من الرجال الأوفياء الأذكياء العادلين الذين .. تعصبوا لها ، تعصبوا لها عن دراسة

وفهم وايمان .. فمن خلال دراستهم استطاعوا ان يبحثوا ما هم بصدده من قضايا ، ويلمسوا بكل اطرافها ، وأدت بهم الدراسة الذكية الدؤوبة الى فهم شامل للبناء الفكري الذي تقوم عليه دعوتهم ، وأتاحت لهم هذه الدراسة وذلك الفهم الفرصة الكافية كي يعقدوا المقارنات بين دعوتهم ودعوات الآخرين ، وان يحاولوا ربط هذه الدعوات بقضايا مجتمعهم خاصة ، وقضايا المجتمع الانساني عامة ، ومن ثم وضح امامهم الطريق ، واتضحت معالمه وأضاء حبهم للبحث عن الحقيقة ضمائرهم وعقولهم وأبصارهم وبصائرهم .. فكان الايمان .. الايمان المنطقي الواعي المدعم بالشواهد الثابتة والأدلة القاطعة ، الايمان الذي يجعلهم يضعون مبادئهم فوق كل الأطماع ، فوق ملاذ الحياة والنزوات الفردية ، وفوق الركون الى الدعة والراحة والنعيم ، لقد خلق لهم ايمانهم عالماً جديداً .. وضّاء السمات ، رقراق المنى .. فعاشوا فيه وتناسوا كل ما عداه ..

ومن ثم « تعصبوا » لدعوتهم . أقولها بملء فمي «تعصبوا» لها .

لم يكن تعصباً أعمى يدوس الحريات والحب ، ويشحن النفوس بالحقد على الآخرين ، وينقم على المخالفين له في الرأي ، بل تعصباً نظيفاً بانياً هادفاً ، يقوم على أسس من الحب والخير والعدالة واتاحة الفرصة للاخرين كي يعبروا عن وجداناتهم ومشاعرهم ، وعن آمالهم وآلامهم ، وعن رأيهم في الحياة التي يحبونها ، والمجتمع الذي يكونون فيه لبنات من بنائه الضخم الشامخ ..

هذا اللون من التعصب المفتوح العينين القائم على الدراسة

والفهم والذي يتبعه الايمان والعمل .. هذا التعصب الذي يبني ولا يهدم الا الفاسد الخَلِقَ .. هذا التعصب هو الذي نريد ، ومن ثم لا يصبح التعصب مقيتاً قاتلاً إلا إذا هدم ركن العدالة والحرية والأخوة ، وعاث في الأرض الفساد .

واذا ما نظرنا الى التاريخ نظرة واعية منصفة لوجدنا ان كل فلسفة من الفلسفات أو دعوة من الدعوات سواء أكانت عادلة أو جائرة لم تنهض الا على أكتاف رجال يتعصبون لها ويؤمنون بها أعمق الايمان، فمن يا ترى قام بدعوة عيسى وموسى ومحمد .. عليهم السلام .. بعد ان اختارهم الله الى الرفيق الاعلى ؟

ومن نشر مبادىء نيتشه واقبال وغاندي وماركس وانيشتين واوجست كونت وابن سينا وغيرهم ؟

نحن لا ننكر ان هناك « طفيليات » بشرية نهازة للفرصة ، تتسلل الى صفوف الدعوات والفلسفات ، بغية الكسب والأمجاد الشخصية أو الدوافع الخبيثة ، هذا اللون القاتم من البشر هو الذي يحاول دائماً ان يضع العصابات السوداء على العيون المفتوحة ، ويزين لها سبيل الشر والهلاك ، ويغريها بالجمود ، وينحرف بها عن الجادة .. هؤلاء — اعترفوا أو انكروا — هم أعداء البشرية الحقيقيون وليس أعداؤها أولئك الذين يبذلون طاقاتهم وأعمارهم في البحث عن الحقيقة المجردة ، ويؤمنون بها ويتعصبون لها .. ولا يعقل أن يوصم المسلم الحق بالتعصب الأعمى ، وتجربته التاريخية ونصوص دينه تنفر من الظلم والعصبيات الحمقاء ،

وتصرح دائماً أنه لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، وأن عصبيات الجنس واللون والمكان سذاجة وجهل ، ألم يكن الفتى المسلم يقف في جيش المسلمين وأبوه في جيش الكفار ، كل ينافح عن رأيه ، ويدافع عن عقيدته ، لم يمنعه عن ذلك قرابة أو جوار .. ؟

* * *

ومن هنا كان من البديهي – لكي نكون رأياً اسلامياً عاماً – أن نحرص دائماً على نشر هذا الدين ، وبسط أمجاده ومبادئه ، والانتفاع بها ، والتعصب لها تعصباً نظيفاً عادلاً .. وليكن واضحاً للجميع ان التعصب شطرين :

شطر يعني الايمان والاستمساك بالمبادىء والعمل لها :

وشطر ثاني يتحرك ويعمل دون تفكير أو انصاف ، ويضع على عينيه – كما يقولون – العصابة السوداء . وهذا الاخير هو ما نكرهه ونحاربه ، ونعمل على تجنبه وفضيحته والتنفير منه .

والآن من أين نبدأ ؟؟

نبدأ بداهة من الفرد .. « من الوحدة » الانسانية التي تتلاقى وتتباعد وتكون في مجموعها البناء الكبير « المجتمع » وكلنا ينادي بتكوين الفرد تكويناً اسلامياً صحيحاً – وأنا منهم – مع اننا لم نكمل بعد تكويننا نحن ، شيء ما يدفعني دائماً .. يدعونا للعمل ، ويثير فينا النخوة الدينية ، ومهما تسامى الفرد

في مجالات الصعود والتسامي فسيظل دائماً يشعر بالنقص الكبير..
لم يصل به جده بعد الى المستوى اللائق به كإنسان مسلم ، حتى
عمر بن الخطاب بعدله وشجاعته وحسن بلائه يبكي ، ويخاف ان
لو عثرت بغلة في العراق لسأله الله عنها لماذا لم يسو لها الطريق ،
ومحمد نفسه صلوات الله عليه وسلامه لا يأمن مكر الله ... فلا
عيب اذن أن يشعر الفرد المسلم في عصرنا الحاضر – اذا ما قاس
نفسه بالمثل الكبيرة – بالتضاؤل والقصر والتقصير ، وانما العيب
أن يبقى كما هو يائساً سادراً في خموله ونومه وهواجسه ..

وبناء الفرد يشترك في اقامته البيت والمدرسة والمجتمع ...
الثلاثة ... ما هم الا أجزاء في ماكينة واحدة ، وعطب واحد
منها يؤدي الى توقف الآخرين ، فقد يربى الطفل على الفضائل ،
ويُعَوَّدُ على تأدية الفرائض ، ويرغَّب في السلوك الحسن ويشحن
بطاقة كبيرة من الوعي الديني ، لكنه يخرج الى الشارع فيسرق
طفل آخر لعبته ، او يصفعه بلا سبب ، او يكيل له أقذع
الشتائم ، وقد يحدث له نفس الشيء في المدرسة ، وقد يرى في
المدرسة فراغاً واستهتاراً وعدم اكتراث بالمسائل الهامة التي
غرسها في البيت ، يحاول ان يذهب الى مصلى المدرسة فيجده
خاوياً او يجد بعض أقرانه قد هربوا اليه يدخنون السجاير
خلسة ، ويذهب الى درس الدين فيرى أقرانه قد انفضو أو كادوا
واستاذه يتكلم في فتور متعرضاً لبعض القشور – دون اللباب –
فيغلبه النوم ، وتفتر حماسته ، ويقع في شك داخلي مرير ،

وارتباك شامل ، فتتوزع نفسه ، وتتمزق في كيانه الأحـــلام الشفافة عن الله والحب والبطولات ومشاعر الانسان الثرية نحو أخيه الانسان ..

اننا في حاجـة الى وعي اسلامي شامل يقوم به الأب في بيته ، وكذلك الأم ،ويقوم به المدرس في مدرسته ، ويقوم بين أفراد المجتمع فيحقولهم وأسواقهم ومعاملهم ومصانعهم ، ويقوم به الحاكم من أعلى ، بذلك تتضافر الجهود ، وتتوحد الاتجاهات وبذلك يصير « المعيار الأخلاقي » مقياساً هاماً من مقاييسنا في الحـــكم على الأشخاص وتقدير الكفايات ، واغداق الترقيات ، ان تجاهلنا للسلوك الشخصي في الحـكم على الافراد اجحاف كبير فالأيدي الملوثة لا تستطيـع ان تخطط مستقبلاً نظيفاً ، والأفكار المنحرفة لا تورثنا غير القلق والشذوذ والارتباك ، ونحن لا نريد ان نقيم طابوراً خامساً من الجواسيس يتسقط أخبار المواطنين ، ويحصي حركاتهم وسكناتهم ، ويدعهم يشعرون بما يشبه القيود يغلل تصرفاتهم ، لكننا نريد للأفكار النظيفة ان يسمح لهـــا بالظهور وللأيدي الأمينة ان تبني وتتقدم ، وتأخذ مكانها اللائق بها .. فلا يكون مجال الترقي موقوفاً على الأقدمية والاجـازة العلمية ، فحسب ..

عندئذ يجد طفلنا مدرساً عف اليد واللسان ،ويجد عاملنا في المصنع مديراً يؤمن بالله وبحقوق الآخرين وبالرحمة والعـــدل ، ويجد جمهرة قرائنا صحيفة مخلصة في التعبير عن آمالها ومعتقداتها

وأفكارها وآلامها .

وهـذا يجرنا بدوره الى الحديث عن وسائل الأعـــلام في مجتمعاتنا الاسلامية من صحافة واذاعة وتلفزيون وكتب وفنون .

* * *

الصحافة : أصبحت الصحافة بدون منـــازع من أقوى أدوات التأثير والتوجيه في المجتمعات ، وأطلقوا عليها لخطورة شأنها – اسم صاحبة الجلالة – واتفق على أنها رسالة ومبدأ .. لكن هل الصحافة بوضعها الراهن في العالم الاسلامي تؤدي هذه المهمة ؟؟

لقد غلب على الصحافة الحديثة عوامل خطرة هي جريهـــا وراء الاثارة والكسب المادي ، وأهملت الجـــانب العقائدي الأصيل في أممنا التي تسير في موكب البعث ، وتستلهم تراثهـــا الروحي والفكري ، وبذلك أصبحت الصحافة تجارة .. وفي ظل هذا الانحراف استغلتها الرأسمالية واستغلهـــا الاستعمار ، وكذلك الطغاة في الداخل والخارج ، وعندما قامت الثورة في مصر وكشفت عن المستور قرأنا قوائم المصروفـات السرية .. الأموال التي كانت تخضع لها المبدأ والرجـــال وتتجر بالقضية الوطنية ..

نحن لا ننكر ان سلاح المصادرة والرقابة والسجن والتعطيل كلها كانت عوائق تقف في وجه الدفع الثوي للكلمـة الحرة ،

لكننا كنا في طور بناء وتضحية ، وما كان يصح أن تسكت الأقلام الحرة أو تتحول أنهار الصحف الى مديح وثناء واطراء لجلادي الشعوب ، ان مصادرة الصحيفة أو تعطيلها كان أشرف وأفضل ما دامت تحمل رسالة سامية ، وما دامت أداة توجيه ، فاذا ما زيفت الرأي العام ، وخدعت الجماهير اصبحت وباء وضلالا .

وهذا ما حدا بشيخ الامناء الأستاذ امين الخولي ان يسميها صاحبة الضلالة ، ومرة اخري صاحبة الجهالة ، انني أعود الى الماضي واتصفح الصحف ، ماذا اجد فيها ، عشرات من قصص الجرائم ، وقصص الجنس والعشق والخيانات الزوجية ، وصوراً عديدة للمثلين والممثلات والمطربين والمطربات، وعن طلاق تلك، وزواجها من نجم جديد لعبت امامه دور البطولة في فيلم سينمائي وعشرات الحكايات والتحقيقات الصحفية عن حياة الباشاوات وامرارهم وامجادهم وسهراتهم الليلية ، وعن نسائهم، وما يرتدين من ثياب ، وما يدلين به من تصريحات ، وعن .. حظك هذا اليوم ، ومذكرات الاعلام من المجرمين والجواسيس والعشاق والراقصات .. وغزتنا التيارات الجديدة ، اوسمها – اذا شئت – البدع الغريبة البراقة ، فوجدنا كتابا يتشدقون بالحريات الفردية الى اقصى مدى ، ويلبسون رداء الوجودية مثلا ، وهم لا يعرفون عنها سوى انها سهرات حرة في المواخير والحانات ، وحب محرم ، ونساء ورجال يتسابقون في مجال اللهو

والمتعة ، ووجدنا العاملين في المجال الصحفي يتسابقون الى مد ايديهم الى المشاهير من رجال الفن والسياسة ، كي يتقاضوا منهم الثمن ، مقابل نشر صور لهم ، وعمل الدعايات المبالغ فيها عنهم ، ولقد اعترف لي احد الصحفيين الشبان بأن رئيس التحرير كلفه بان يذهب الى فنانة مشهورة ليأخذ منها حديثا صحفيا بعد ان دفعت الثمن واشترطت ان تحتل صورتها غلاف المجلة ، وان تقترح هي الأسئلة التي يوجهها الصحفي اليها ، وكان ان سألت نفسها وأجابت ، وبقي الصحفي الشاب صامتا ، ويده تتحرك بالقلم لتكتب العجب العجاب الذي ينطلق من فمها .. وذكر لي صديق صحفي آخر فقال : كنت في بداية عملي بالصحافة مستقيما اتيت من الريف ، ونلت اجازتي الدراسية ، وبقيت متشبثاً بقيمي الخلقية ، وفجأة استدعاني احد محرري الجريدة الكبار وقال في حدة : « لست هنا في الازهر » يجب ان تغير من سلوكك هذا .: هذه الطريقة « الدراويشية » لن تجعلك تحقق اي نجاح ، ولن تدخل المجتمعات الراقية .. انت محرر في القسم الفني ، ومن ثم يجب ان تعرف الفنانات وتشاركهم في سهراتهم الحمراء .. « وهكذا عشت في جو معتم لا أكاد ارى فيه حقيقة نفسي .. اجل نسيت كل قيمي في هذا الجو الموبوء .. ونجحت كما ترى .. نجحت في الحصول على مرتب كبير ، وصلات واسعة ، واسم رنان .. »

كثيرون اولئك الذين يتحدثون عن الله وهم لا يؤمنون بشيء

وكثيرون يمجدون الطبقـــات الـكادحة ، ويكتبون عن آمال الشعوب وهم ابعـــد ما يكونون بضمائرهم الخربة ، واقلامهم المأجورة .. عن قضايا الشعب وآلامه وآماله ..

وكثيرون يتزعمون الحركات الفكرية والتوجيهية وهم ابعد ما يكونون عن الجدّية والاخلاص والعمق .. وهبهم الله لساناً ذرياً ، وقلماً سيالاً فسودوا الصفحات ، وخدعوا الشعوب ..

بالامس دافع .. كاتب لامع .. عن الاسلام وعن الألوهية ، والقيم الروحية ، وضحكت ضحكت عندما تذكرت– والناس يعلمون ذلك تمام العلم – انه زعيم من زعماء التيارات الإلحادية.. حبذا لو شغل الفكر الاسلامي صفحات كتلك التي شغلها الحديث عن تحضير الأرواح بالسلة، حبذا لو الغينا الصفحات التي تتحدث عن مسابقة السيقان واجمل عينين وملكات القطن والفنـــادق والطيران والمانيكان ، وتحدثنا فيما ينفع ويفيد .

ويا حبذا لو افردنا صفحة او صفحات لـكي نقر فيها اسس العقيدة والفكر والبناء كما نفرد صفحات للفن والرياضة..و..الخ.

ان صحافتنا للاسف ليست للتوجيه .. لكنهـــا مجرد ذيل ينسحب خلف التطورات الـكبرى ، ويسير في عقب كل انطلاقة ثورية ..

ان صحافتنـــا تركة مثقلة بالآثام والاضطراب الفكري والعقيدي ، ولم تحاول – إلا نادراً – ان تنفي خبثها ، وتؤدي

واجبها في شجاعة وبسالة دون خوف من وعد او وعيـــد ..
وصحافتنا لم تزل سوقية في تعبيرها ، سوقية في افكارها .. اغلب
مادتها ساذجة وسطحية ، ومشاكل بلا حلول .. والصحفيون لم
ترسخ في اذهانهم افكار متطورة وخلاقة ، ولم يرسموا لهم ولا
لشعوبهم .. ايدولوجيات .. محددة المعالم ، واضحة الخطوط ،
وفاقد الشيء لا يعطيه .. وما دام المفهوم التجاري ، والاثارة
الجوفاء ، واللعب بالالفاظ ، وشغل الاذهان بقضايا فرعية تافهة،
ما دام كل ذلك هو همّ الصحافـــة ، فستبقى عاراً في جبين
حضارتنا وانطلاقنا وتاريخنا ..

فلا عجب اذا اصبحت صحافتنا بعد ذلك نسخاً مكررة لا
تختلف الا في اسمائها، ولا عجب اذا فقد صحفيونا صفة الاستاذية
وشرف التوجيه ، ونبل الرسالة ، وجلال العقيدة .. ولا يفوتنا
في هذه اللمحة الخاطفة ان نطالب بحقوق عادلة ما كان يصح ان
تغيب عن اذهاننا ، هـــذه الحقوق تتعلق بالصحفي من حيث
تأمين مستقبله ومستقبل اولاده ، واعطائه فرصة كاملة لتكوين
نفسه ، وإثراء ثقافته، ومنحه حرية التعبير الكاملة عن افكاره ،
وفي نفس الوقت توجيهه الى تراثنا وعقائدنا وامجادنا الكثيرة .

ثم لمـــاذا لا تحاول الدولة – اية دولة اسلامية – ان تسد
جوانب النقص في حياتنـــا الصحفية فتنشىء الواناً عدة من
الصحف، لكل طابعها المميز ومجال تخصصها الذي يغلب عليها ،
بدلا من ان تكون الصحف متضاربة في نظامهـــا وكتاباتها

وموضوعاتها ..؟؟

لكم اتمنى ان ينزل أولو الأمر في الدول الاسلامية الى دور الصحف ويختبروا اجواءها عن قرب ليروا كيف يعيش حملة الأقلام معاً ، وكيف يفكرون وكيف يكتبون ما لا يعتقدون، وكيف تلتبس القيم في اذهانهم ، ويتحللون في علاقاتهم الفردية والجنسية،وكيف تهدر بعض الكفاءات الممتازة وتدبج المقالات، وتمهرها بأسماء ظالمة كاذبة سارقة ، وكيف تتدخل المحسوبيات والرشاوى في رفع هذا وخفض ذلك،وحرمان فلان من الكتابة واتاحة الفرصة لغيره ليكتب وهو لا يجد في الحقيقة ما يكتبه . . وفي ظل هذه الفوضى والتكتلات .. والشلل .. تموت كفاءات ناضجة ، وتسحق براعم ناشئة ، وتقصف اقلام ما كان يجب ان تقصف .. وتدفن افكار كان من الافضل ان تعيش .. وتبدع .. وتتغنى بكلمة الله ، وسعادة الانسان .

فلننف عن الصحافة خبثها ، ولنعزل عنها ادعياء الفكر ، ولصوص الثقافة والمعرفة ولنخرج منها اولئك الذين تسللوا اليها بطرق ملتوية ، ووسائل قذرة ، ولندرس تاريخ كل صحفي وما قدمه من افكار طوال عمله ، ولا نرحم مقصراً او عابثاً ، فالذين يهزءون بالكلمة الشريفة وينحرفون بها عن الجادة هم اخطر اعداء البشرية .

وعندما تصبح الصحافة نظيفة ، اعنى يقوم على شأنها طائفة من الدارسين الواعين والمفكرين المنصفين ، اولئك الذين تختلط

العقيدة بأقوالهم واقلامهم ، ويجعلون منها - اي العقيدة - فيصلاً فيما يعرض لهم من القضايا، ويرجعون اليها عندما تلتبس الامور، ويربون عليها القراء بشتى طوائفهم ومستوياتهم الثقافية ، ويشيعون بين الجماهير روحاً دينية صافية ، ويدفعونهم الى الايمان بالله والخير والجمال والعدالة والحرية ، وعندما يتخيرون المثل الصالحة من الرجال والنساء لكي تكون قدوة للشباب ، وعندما يلقون الأضواء على المشاكل الخاصة والعامة ، ويقدمونها في عمق ودراسة ووعي ، ويعبرون عن وحي ضمائرهم الحية ، وعقولهم المبدعة الباحثة .. عند ذلك يجد الاسلام وسيلة رائعة من وسائل تكوين الرأي العام الحر الصالح ..

* * *

الكتاب : عندما ساد التفسير المادي للتاريخ ، واعتبر الاقتصاد هو العامل الأساسي في تحديد القيم والمبادىء ، سيطر سلطان المعدة ، وعلت ارادة الجسد وحاول الانسان الحديث الذي ضعف فيه وازع الدين، وانغمس في المتع الحسية التي حققها التفوق العلمي - حاول هذا الانسان المتحرر ان يشبع غرائزه، اذ صادفت تلك الحرية الفاجرة هوى في نفسه ، وخاصة بعد ما وجد ما يعضده من نظريات وأفكار ..

لعل هذا هو السبب في رواج الكتاب الجنسي والروايات الجنسية ، على وجه التحديد ،ان قصص فرانسواز ساغان بلغت الملايين من النسخ بكل لغات العالم ، بلغت رواجاً لم يحلم به

كبار المفكرين في الشرق والغرب ، وأصبح لها من التأثير ما لم تكن تتصوره وهي الفتاة ذات الثاني عشر ربيعاً ..

ولم يكن رواج الادب الجنسي - أو سمه أدب التخدير وتملق الغرائز - في اوربا وحدها بـل انتقل الى الشرق ، وسار في التيار العابث فئة من كتابنـــا ، واستغلوا مواهبهم الفنية في الانغماس في أدب الجنس وايصاله الى الجماهير في طبعات أنيقة ، ولوحات فنية مثيرة ..

وحدث رد فعل عنيف في الأوساط المحـــافظة وأوساط المتدينين ، فوصمهم كتاب الجنس بالتخلف والجمود وعدم مسايرة المدنية الحديثة ، وزعموا ان عهد الحريم قد انتهى ، فللمرأة اليوم ان تخرج سافرة متبرجة وان تلبس ما تشاء ، ولها مطلق الحرية في ان تسهر وتحب وتلتقي مع الأصدقاء والغرباء ، وتشارك بالرأي في كل أمور الحياة .

وهكذا احتدمت المعركة بين المحافظين والمتحللين من قيود الاخلاق والدين ، وكانت الظروف التاريخية والامكانيات المادية والفنية في كفة المتحللين لاسباب عدة ألمحنا اليهـــا في الصفحات السابقة وهكذا انتصروا مؤقتـــاً ، ولم يقفوا عند هذا الحـــد ، بل تمادوا في معاركهم الفكرية - مع المحافظين - حول المفاهيم الحضارية الجـــديدة ، وأدلوا برأيهم في الدين والقيم الخـــالدة ، وهكذا هـــاجموا الدين والمنافحين عنه ، هـــاجموه لا عن وعي ودراسة ، وانما افتتانا بالغرب وحضارته ، وحفاظاً على مكانتهم

التي وصلوا اليها في ظل الفلسفات المنحرفة، وحفاظاً على الكسب المادي الذي حققه لهم طائفة بلهاء من جماهيرنا المخدوعة .. ولم يكن دعاة التحلل - كما قلنا - هم الملومون وحدهم، بل ان المحافظين لم يتسلحوا للمعركة الفكرية بما هي جديرة من وسائل وأدوات وأسلحة وبذلك أصبح صوت المخادعين أعلى من صوتهم، وتأثيرهم أقوى وأعمق أثر .. وغدا الكتاب الاسلامي، إما قديماً أصفر الورق سيء الاخراج، صعب التحصيل، غالي الثمن، معقد الفهم واما حديثاً في أسلوبه وتعبيراته، ولكنه خافت الصوت، محدود الرواج في يد قليل من القراء، سطحي البحث. ولم يستطع الفنانون المتدينون ان يحملوا التبعية ويهزموا التيارات الوافدة ولم يحاولوا - في أغلب الأحيان - ان يهضموا الأساليب الحديثة في الاداء والعرض واختيار الموضوعات النابضة التي تثير وتمتع وتلفت النظر، ومع هذا فقد استطاعت حركة إحياء التراث القديم المحدودة، وطبع الكتب القديمة، ومساندة الهيئات - وأحياناً الحكومات - لها، استطاعت هذه الحركة ان تؤدي خدمات جليلة في الميدان الفكري والثقافي ..

وعندما انشئت الجامعات في الشرق، وكانت تحمل في اروقتها الأمل في فجر جديد، غير انها حاولت ان تنهج نهج الأوربيين لا في « التكنيك » وطريقة البحث وحدها، وانما نقلوا عن الغربيين - والمستشرقين خاصة - آراءهم في الدين وصلته بالحياة، وآمنوا مثلهم بفصل الدين عن الحياة العامة،

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد مفكراً مثل الدكتور طه حسين في كتاب الشعر الجاهلي يحاول ان يتعرض للقرآن ويلقي عليه ظلالا من الشك – عن قصد او غير قصد – مما اثار عليه جماهير الشعب في فترة مبكرة من حياته .

وهكذا غلبت على الرسالات الجامعية وابحاثها هذه النزعة الشائنة ، بل ان كثيرين منهم حينما اعدوا دراساتهم التي تتصل بالتاريخ الاسلامي اهتموا بفرعيات وجزئيات لا ترتبط اوثق الارتباط بالقضايا العقيدية ، هذا في الجامعات الحديثة ، اما الازهر فقد دار اغلب علمائه في الفلك القديم ولم يحاولوا ان ينهجوا نهجاً حديثاً في طريقة تناول الموضوعات او يرابطوها بقضايا الفكر المعاصر والحضارة الوافدة ، ومن ثم رموا بالجمود والتخلف ، اللهم الا قلة نادرة ادركت خطورة الامر ، وبذلوا جهداً مشكوراً ابان تلك الحقبة الحرجة من تاريخ الاسلام ، وفي الهند استطاع الفيلسوف الشاعر محمد اقبال ان يلعب دوراً جباراً في احياء المفاهيم الاسلامية وان يلبسها رداء شائقاً جذاباً وان يثير عديداً من القضايا الفكرية وان يعرضها على الصعيد العالمي [1] ... وكذلك فعل المجاهد الافغاني ومحمد عبده .

* * *

ان الكتاب ركيزة هامة من ركائز الراي العام ، ومن هنا

---

(١) انظر كتابنا (اقبال الشاعر الثائر) .

كان علينا ونحن نشيد اركان راي عام اسلامي ان نعطي الكتاب ما هو جدير به من اهتمام ورعاية .

وقبل ان نفكر في الكتاب .. يجب ان نفكر في مؤلفه ، المؤلف الذي اكتملت له ادوات التأليف من موهبة وفهم وتجربة وعقيدة اصيلة لا تتزعزع او تزيغ ، المؤلف الذي يخالط جماهير شعبنا بعقل متفتح ، وقلب كبير ، وحساسية شديدة ، المؤلف الذي يختزن تجارب تاريخه الطويل ويمارس تجارب حاضره الذي يغص بالمشكلات والتيارات ويستشف عالم المستقبل بروحه الصافية ، ووعيه الكامل « إن دفقة الحماسة وحدها لا تكفي والغيرة على الإسلام – مجرد الغيرة – لن تكون لها فاعليتها التي نريد .. وكما نريد أن تكون للاسلام « صحفه » الناجحة الشاملة .. كذلك نريد ان يكون له .. الكتاب الناجح الرائج .. الكتاب في الشعر .. والكتاب في الرواية والقصة القصيرة .. والكتاب في المسرحية .. والكتاب في السياسة .. والكتاب الاجتماعي والاقتصادي والفلسفي .

وباختصار ، الكتاب في شتى ألوان المعرفة .. على أن يؤدى ذلك كله في اسلوب عربي واضح وبطريقة مقنعة تشد إليها القارىء شداً ، دون أن تتعلق غريزة من الغرائز ، أو فكرة من الأفكار المفروضة الخارجة على أساس العقيدة .

وأن يكون الكتاب آنق في الاخراج ، وأقل في الثمن ، وأقرب الى التناول ، حتى يتغلب على المغريات والمنافسات

الخبيثة ، وأن تساهم فيه الهيئات القادرة ، والأداة الحاكمة ، وأن يتناوله النقاد والمعلقون في شتى فروع الاعلام بالتحليل والنقد والدراسة ، وأن يدخل محافل المثقفين والمفكرين ، والمدارس والجامعات ما دامت قد اكتملت له أدوات النجاح الفنية من حيث الشكل والمضمون .. بذلك نقضي على المفهوم السائد الذي يعتبر الكتاب الاسلامي مرادفاً لكلمة الرجعية والعالم الآخر والقِدَم والتخلف والتزمت .

وليس عيباً أو تخلفاً ان نستلهم تاريخنا الاسلامي في اعمالنا الفنية الحديثة ، فإن كثيرين من كتاب الغرب يستلهمون الأساطير الاغريقية القديمة ، ويتناولونها بالدراسة والتحليل ، ويعرضونها عرضاً حديثاً ، يعالج بعض القضايا المعاصرة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فعل ادباء الغرب في اسطورة سوفوكليس — « أوديب الملك » — تناولها عنه المؤلفون المحدثون أمثال اندريه جيد ، وتوفيق الحكيم ، وعلي باكثير ، وقد نجح الأستاذ توفيق الحكيم الى حد كبير حينما استلهم حادثة .. « اهل الكهف » وكذلك عندما كتب مسرحيته الأخيرة .. « السلطان الحائر » حيث يصور الصراع الازلي بين السيف والقانون .

وليس معنى ذلك أن افكار الكاتب المسلم يجب أن تستمد من التاريخ البعيد فحسب - بل ان الماضي والحاضر سلسلة واحدة مترابطة الحلقات ، وليس من الإنصاف ولا من البديهي ان يغمض الكاتب المسلم عينيه عن مشاكل مجتمعه لأنها المحك او

التجربة التي تثبت صلاحية إفكاره او فسادها وتقرر حاجة المجتمع اليه والى آرائه أو نفوره منه ، وصم الآذان عن دعوته.

بقيت كلمة اخيرة تتعلق بالكتاب.

الناشر .. ان الناشر يلعب دوراً هاماً رئيسياً في حياتنا الفكرية ..

وعملية النشر في حقيقة امرها عملية تجارية ، والناشر تاجر ينظر الى الكتاب كسلعة ، ومن ثم نادراً ما يقبل على نشر كتب الناشئين ، او المجهولين من المؤلفين ، بل ان الناشر قد يرحب بنشر « رواية » للمؤلف في الوقت الذي يعتذر فيه عن نشر مؤلف آخر - ليس رواية - يعالج مشكلة من المشاكل السياسية او الاجتماعية ..

ولا شك ان وضع مستقبل « الفكر » في يد « تاجر » أمر يدعو الى الغرابة ، ويؤدي بالضرورة الى أسوأ النتائج ، ونحن بذلك نحمل الناشر فوق ما يطيق ، فهو - كما قلنا - صناعته التجارة ولا يريد ان يملأ جيبه او يطعم اولاده بالورق والأفكار ، وانما يريد مالاً وطعاماً ..وليس معنى هذا ان نقره على سياسته ، ونطأطىء الرأس اذعاناً لأسلوبه ومزاجه في النشر ، ففي الامكان ان تفرض عليه الادارات الثقافية الحكومية عدد من الكتب الجادة الاسلامية - أعني نسبة ضئيلة من الكتب التي ينشرها - مضافاً الى ذلك معاونته في ذلك بأن تشتري منه عدداً من النسخ للمكتبات العامة أو تساهم معه في الإنفاق على الكتاب ، ان فرض

كتاب معين على الناشر يخدم قضية العقيدة والفكر لهو ضريبة ، عليه أن يقوم بأدائها، ويلتزم بها ، لا لأنها مفروضة عليه فحسب، بل لأنها واجب ديني ووطني يمليه عليه ضميره وانسانيته ، فضلاً عن أنها لن تحمله فوق ما يطيق او تؤذي مستقبله التجاري ..

ومما يسجل بالفخر لوزارة الثقافة والارشاد ، ووزارة الاوقاف ، ووزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة تلك المجهودات الثقافية ، وهذه السلاسل المنتظمة التي تشرف عليها ، وتتكبد الكثير في الإنفاق عليها ، وعمل الدعايات اللازمة لها ، وبيعها بأسعار رمزية ، بل إنها كانت تجربة ناجحة دفعت الكثير من الناشرين الى التفكير من جديد في قيمة الكتاب الاسلامي ، واستجابة الجماهير له متى أصبح في متناولها ، حتى ان كتاب « اشتراكية الاسلام » و« الامام محمد عبده » وغيرها قد بلغت عشرات الآلاف من النسخ وهي أرقام لم يحظ بها الكتاب العربي والاسلامي من قبل ..

إن الكتاب دوره خطير وأساسي في بناء المجتمع الاسلامي، وفي تكوين رأي عام اسلامي . وسوف يؤدي دوره على أكمل وجه عندما يفهم المؤلف والناشر والقارىء والأداة الحاكمة عندما يفهم كل منهم واجبه ازاء هذه المسئولية الجسيمة ..

الاذاعة والتلفزيون :

اذا كان الأميُّ لا يستطيع أن يستمتع مباشرة بما تكتبه

الصحف أو تضمه الكتب لعدم إلمامه بقواعد القراءة والكتابة، فانه لا يصطدم بمثل هذه القيود والعقبات عندما يصيخ السمع لما تذيعه الاذاعة أو يعرضه التليفزيون ، لقد أصبح المذياع بصفة خاصة وسيلة هامة من وسائل الاتصال بالجماهير ، وأداة ذات أثر عميق في توجيه الرأي العام، وتعبئة الشعور الوطني ،فأغانيها تتردد على الشفاه، وتمثيلياتها يتناقلها الناس، والمسلسلات الاذاعية يحافظ على مواعيدها بانتظام ، وللأحاديث الدينية عشاق ، وكذلك تلاوة القرآن الكريم ، وفي المجال السياسي وما تقدمه من تحليل ، وتلقيه من أضواء على الأحداث المحلية والمشاكل العالمية ، كلها تلعب دوراً خطيراً .. وبالاختصار فان الاذاعة سريعة الاستجابة لما يجد من أمور ، عميقة التأثير فيما تقدم من ألوان ، ونظرتنا للإذاعة تقوم على أنها وسيلة إمتاع وتسلية .. ووسيلة افادة وتوجيه في نفس الوقت أي ان رسالتها ذات شطرين ، وتجاهلنا لواحد منهما فيه تجن وتحيف وظلم للواقع ، وغض لرغبة الجماهير ومطالبهم ، والمسألة اذن مسألة توازن وتخطيط ذكي واع ، وقد طرأت على الجمهورية العربية أحداث كبرى استطاعت الاذاعة خلالها أن تجند الاغنية والتمثيلية وحتى الفقرات الضاحكة المرحة ، فأدت هذه البرامج وغيرها واجباً يسجل بكل فخر وثناء ..

فلتكن الاذاعة وسيلة إمتاع ووسيلة توجيه في آن واحد ، ولكن على أساس أن يجمع اتجاهها فلسفة واحدة ، واتجاه

فكري غير ممزق ، ولتستبعد منها التفاهات الفارغـــة التي لا تحمل في ثناياها غير التهريج والبذاءة والتكلف المقيت ، وليعاد تنظيم أجهزتها بحيث يكون رجالها من نوع يقـــدر المسئولية ، ويستحق أن يكون جديراً بشرف الرسالة الكبرى ، ان كثيرين من المؤلفين الاذاعيين والمخرجين والفنانين يفعلون ما يفعله رفاقهم من الصحفيين المنحرفين وحملة الاقلام المدنسة ، وبعضهم يتخـذ من مركزه وسيلة للاتجار والكسب غير المشروع ، وقد تجرأ أحد الصحفيين وذكر احداثاً غريبة . فالمخرج لا يقبل تمثيلية اذاعية من مؤلف الا اذا قاسمه ما يتقاضاه من أجر ، والصداقات تفعل فعلها في اختيار النصوص ، والأسماء اللامعة – سواء عن جدارة أو عن زيف – تفرض نفسها فرضاً ، كل هذه الأوضاع الشاذة ما كان يجب ان يترك لها العنان في مجتمع كمجتمعنا ، مجتمع يحارب الفساد وعدم تكافؤ الفرص ، ثم هذا التقليد السخيف الذي درج عليه بعض المشرفين على البرامج الاذاعية ، ألا وهو شغل حيز كبير لمشاهير الفنانين من وقت الاذاعة ، نحن لا نحقر من قيمة الفن أو نطفىء من بريقـــه ، أو نغض من شأن الفنانين ، لكن الذي نريد ان نقوله هو ان الفنان كالعالم .. كالبطل المكافح .. كالجندي .. كالفلاح .. كالعامل ، كل واحد من هؤلاء يجب ان يحتل مكانه ويحظى بالاهتمام والرعاية .. خذ مثلاً ذلك البرنامج الجديد .. « قصة حياتي » لقد قدم ثلاث قصص كبيرة عن عبد الحليم حافظ ويوسف وهبي ومحمد عبد الوهـــاب .. هذا حسن لكن أما كان من الأوفق ان يقدم بينهم لونــاً آخر من الرجال

وطرازاً آخر من القصص ؟ وقس على ذلك عديداً من البرامج المختلفة .. ان الاذاعة ليست ملكا لاربعة او خمسة ملايين من المثقفين ، لكنها ملك أيضاً لعشرات الملايين الذين ينتشرون في أقاصي البلاد في القرى والكفور والعزب النائية ، وملك لكلمة الله التي تطرب لها قلوبهم ، وتهتف بها أرواحهم ، وهم يحملون فؤوسهم تحت وهج الشمس او يقيمون في حجراتهم الضيقة المتواضعة تحت ستار الليل ..

واذا كان .. الكتاب .. ضحية ناشر لا يؤمن بغير المنطق التجاري ، فان الاذاعة مؤسسة تخضع للدولة ، لا يراد لها ان تحقق كسباً مادياً ، وانما الهدف منها خلق توازن نفسي بين الجماهير ، وصقل الأذهان ، وارواءها بثقافات واعية مجدية ، وفنون مهذبة صادقة .. وتحقيق لون من الانسجام بين شتى البرامج ، حتى تحدث تأثيراً موحداً لا تناقض فيه ولا تضارب .

وعندما نتحدث عن وضعنا – كأمة اسلامية - لا نقصد بذلك ان تتحول فنوننا الى مجموعة من الحكم والمواعظ الجامدة او فقرات من التاريخ الاسلامي بمبرر وبلا مبرر ، وانما نريد ان تقدم افكارنا وفنوننا وآراؤنا من خلال منظار اسلامي واع ، من خلال فهمنا للدين والواقع الذي نعيشه .. فكثير من التمثيليات الاذاعية التي أخذت مادتها من التاريخ الاسلامي انحرفت انحرافاً جوهرياً حينما اخذت تصور البطولات الفردية ، أو الاحداث الجماعية منفصلة عن العقيدة الاسلامية التي كان لها أكبر الأثر في خلق ذلك

العالم الكبير ، وفي انماء حضارته ، وفي تفاعل احداثه الضخمة، فلم يكن .. فارس بني حمدان .. مثلاً مجرد شاعر عربي بطل ، عاش تجربة حب، وخاض جواً من المؤامرات والمنافسات الحربية والعاطفية ، بل كانت الشخصية التاريخية –اردنا أم لم نرد – في تلك الفترات مزاجاً من العقيدة السمحة التي تغلغلت في اعماق اصحابها، والظروف التاريخية والاجتماعية التي عاشتها، والتيارات السياسية المتلونة التي خاضت غمارها .

* * *

ومع ذلك فقد جد تطور هائل في السنوات الاخيرة .. وعرضت على بساط البحث قضايا كبرى تناولت التاريخ وشخصياته وأمجاده الكبرى ، والمعارك الهامة ذات المدى البعيد في التطور الحضاري ، وتعرضت لمشاكل دستورية وفقهية وتربوية واقتصادية ، مثال ذلك عندما انطلقت صيحة الاشتراكية في ارجاء الجمهورية العربية ، وسمع الناس على موجات الأثير التفسيرات الهامة لنظام المال في الاسلام ، وتوزيع الثروة ، وحقوق المشتغلين من العمال والفلاحين ، وطغيان الرأسمالية والانتهازية ، وتحدث المتحدثون عن اشتراكية الاسلام ، واخذ يعيدون دراسة السيرة النبوية وكيف عمل محمد صلى الله عليه وسلم على اقامة مجتمع متكافل متعاون يشترك في تحمل الاعباء ، ويقتسم لقمة العيش في نزاهة وعدل ، وكيف حمل ابو ذر لواء الدعوة الى مساندة الفقراء ومحاربة الاحتكاريين والكانزين ،

وكيف حاول الصحابة ومن بعدهم فقهاء المسلمين ان يضعوا أسس العدالة الاقتصادية ، ويقررون مبادىء الحريات العامة ويدفعون الثمن غالياً من راحتهم بل ومن دمهم.. وهكذا سمعنا أصوات كبار رجال الاقتصاد والفقه والتشريع من المحدثين وهم يتدارسون الاسلام ويزيلون الغبار عن أمجاده ومبادئه الرفيعة .. وترددت كلمة « اشتراكية الاسلام » في كل مكان وثار حولها جدل كثير في كل انحاء العالم الاسلامي ..

والآن لماذا رتبت هذه القضية الكبرى ـ قضية الاشتراكية ـ بالاسلام ؟؟

ان الاشتراكية حلم رائع جميل يداعب خيـــال المتعبين والمستعبدين من أبناء جيلنا الذي قاسى كثيراً من ألوان الظـلم الاجتماعي ، ولقد حاول الانتهازيون ان يحطموا هذا الأمـل ، ويفصلوه عن قضية العقيدة لا بطريق البحث المنصف النزيـه ، وانما فعلوا ذلك افتئاتاً وزيفاً ، فقد كان من الخطورة بمكان ان ترتبط اوضاعنا الاقتصادية بقضـــايا العقيدة الدينية .. فعندما تصبح الاشتراكية جزء من العدل الإلهي، وبنداً من بنود العقيدة تصير شيئاً مقدساً يضحى في سبيله ، حيث أنهـا لم تعد مشكلة جوع وظلم اقتصادي فحسب بل مشكلة دين ايضاً ..

ان النظر في مشكلاتنا في ضوء تعاليم ديننا ، ومحاولة حلها على أساس مبادئه السمحة العميقة كسب كبير لنـا ، وانتصار لنهضاتنا ، وتدعيم لمواقفنا الدولية وتأكيد لشخصيتنا وكياننا ،

ولهذا نجحت التجربة ونجحت الاذاعة في قيامها بهذا الدور ..

لكن هل معنى هذا أن يدس الدين أنفه بحق وبغير حق ؟؟
وهل نتعسف بهذا التصرف ونحمل الأمور فوق ما تحتمل طبيعتها ؟؟

كلا .. ستكون المسألة غاية في السهولة واليسر عندما ننظر الى الدين نظرة شاملة تبسط شعاعها على مشاكلنا الحيوية ، ونتخذ منه « وحدة القياس » التي نقيس بها أمورنا أعني الأمور التي عرض قضاياها ، وكانت طوال حقب التاريخ الاسلامي مجالاً للدرس والرأي والتطبيق .

ولا نريد ان نستطرد هنا في سرد جزئيات وبراهين وفروع فنحن لا نقصد ذلك الآن ، وانما نضع خطوطاً عريضة لقضايا عامة وبالتالي نفتح الطريق للبحث والتمحيص في تفصيلاتها .

* * *

لتكن الاذاعة اذن منبراً من منابر الحق ، ومجالاً للتغني بجمال الحياة والكون، وتعبيراً صادقاً عن آمالنا كبشر ، وصدى حقيقياً لما يختلج في قلوبنا من معتقدات وأشواق وعواطف ومشاعر سامية نظيفة ، ولتكن باباً مفتوحاً لكل الكفايات العاملة المخلصة وليكن المشرفون عليها فئة جادة مقدرة لخطورة رسالتها ، ومدركة للعبء الأكبر الملقى على عاتقها ، ولتبق دائماً وسيلة من وسائل الامتاع الفني والفكري ، وأداة توجيه

حر سليم ، فتساهم بذلك في خلق ، رأي عام مسلم ، يحيى حياته ويؤدي وجبه ، ويفعل فعله في ظل مفهوم اسلامي صحيح .

وأخيراً لماذا لا ننشيء اذاعة خاصة نطلق عليها « صوت الاسلام » شبيهة بإذاعة « صوت العرب » ونرسم لها الخطوط العامة والسياسة الحكيمة التي تخدم اتجاهات الفكرة الاسلامية؟؟

السينما والمسرح :

من العبث ان نحاول الحكم على جدوى السينما او المسرح من خلال وضعها الحالي ، ويجب أن نقرر باديء الأمر انها جهازان من اخطر اجهزة التأثير وتشكيل عقلية الجماهير ، ولا يضير هذا التقرير ان النصوص الفنية الحالية في بلادنا مسخاً مشوهاً لتقاليدنا ، وعبث فاحش بقيمنا وواقعنا .

ان الذين يشنون الحرب على السينما اليوم معذرون كل العذر. ومن الحيف ان نتهمهم بالقصور والرجعية والجمود ، فبإحصائية بسيطة نستطيع ان نجد ان اكثر الروايات واغلبها يدور حول محور واحد .. فتى احب فتـــاة ثم ثارت في افقها العواصف والشكوك والمؤامرات .. وتدخل الأشرار بينهما ، او وقفت التقاليد البالية في طريقها ، أو حطمت حلمها الجميل مواضعات اجتماعية أو اقتصادية .. وفي النهاية لقاء من جديـد .. وتحطيم لكل الموانع والعقبات، وزواج سعيدوافراح واغاني وزغاريد .

دائرة مفرغة تدور فيها افلامنا ، ولا جديد غـــير بعض

الوجوه او بعض الأغاني او اسم المنتج او المخرج .

ولنبدأ القصة من أولها :

فالمنتج تاجر كالناشر يهمه سرعة الانتاج وقلة التكاليف ـ والربح الكبير في وقت قصير ... وتلك صفة ورثناها منذ بدأ الانتاج السينمائي في بلادنا على يد الأجانب الذين ادخلوا هذه الصناعة في بلادنا كمشروع تجاري استغلالي ، يجنون من ورائه الربح ويحاولون في خبث ان يغرقوا جماهيرنا المفتونة في بحر من التفاهة والمغامرات الكاذبة والبطولات الزائفة ، وافلام رعاة البقر ، واقاصيص الحب المريض ، وهم بذلك كانوا يخدمون النزعة الاستعمارية وسلطان دولهم الوافدة بحديدها وطغيانها الى بلادنا ، فصرفوا شعوبنا عن جدية الأمور ، وقدموا لهم من الفن قشوره ، ومن المشاكل اتفهها . ومن الفكر اخبثه ، حتى خيل الينا ان القصة السينمائية ليست سوى قصة حب يقوم بدور البطولة فيها امرأة فاتنة ذات وجه جميل ، وجسد مثير ، وفتى حلو القسمات والتلوين ، بارز العضلات ، وخصلات من الشعر الطويل تتدلى على جبهته ، وقميص مشجر ومخطط يبرز مفاتنة كالنساء تماماً .

تلك هي قصة الإنتاج . اعني التجارة الفنية في بلادنا .

أما المؤلف فقد كان مأساة مبكية .

ولم يكن هناك مؤلف سينمائي بالمعنى الحقيقي ، بل كان

المنتج في أغلب الأحيان هو المخرج وربما الممثل الأول أيضاً .. أو يكفي ان تجلس ثلة من الأصدقاء في « بار » او شرفة منزل في ليلة صيف ثم يتبادلون الرأي في قصة سينمائية . واحداً يقترح الموضوع ـ وغالباً ما يكون قصة جنس ـ وآخر يتكلم كيف يبدأ الموضوع وثالث يكمل ورابع يضع العقدة وخامس يقترح الخطوط النهائية ، وأخيراً تسود بضع صفحـات ، ثم تقدم الى كاتب السيناريو والحوار ليعداهـا للإخراج ، ويأتي دور المخرج الذي يخضع للممثل او الممثلة ولا يجرؤ على توجيه أحدهمـا ، ويخضع ايضاً لرأي المنتج .

وليس هذا بغريب حينما نعلم ان احد المنتجين قد تعجبه اغنية لمطرب فيسارع بالدعوة الى تأليف قصة تصلح « للتركيب » على هذه الاغنية ، ويصبح المطرب المسكين – بقدرة قادر – ممثلاً لامعـاً على الرغم منه ، دون ان يكون له بالفن التمثيلي أية معرفة او دراية ..

ويأتي دور الممثل ، الذي لا يشترطون فيه نوعـاً معيناً من الاجادة الفنية بقدر مـا يحرصون كل الحرص على قبوله شكلاً ومظهراً ، ليست المشكلة كفـاءة فنية بـل كشف هيئة ، واذا لم يكن جذاب المنظر ، فاتن القوام فليكن على الأقل ذا حنجرة ذهبيـة ، واغلب هؤلاء الممثلين لم يتلقوا اي نوع من الدراسات الأكاديمية الفنية ، بل ان بعضهم لا يلم بأصول القراءة والكتابة ، واني لأذكر للقارىء قصة ليست من محض الخيال ،

وانما هي من صميم الواقع شاهدتها بنفسي ويعرفها الألوف من اهل قريتنا .. انها قصة فتاة ريفية جاءت الى القاهرة حافية القدمين ممزقة الثياب لتعمل كخادم في بيت من البيوتات الكبيرة ولم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة وكبرت ودخلت ميدان الرقص الشرقي وهز الأرداف ، وأتقنت حركات الاغراء والإثارة .. وذات يوم كانت اعلاناتها تزحم الصحف وتغطي جدران المباني الكبيرة في العاصمة وفي الميادين الكبرى بعد ان غيرت اسمها طبعاً .. واصبحت من نجوم الفن المشهورين في بلادنا ..

السينما في بلادنا مأساة تعسة .. مأساة في مخرجيها ومنتجيها وممثليها ، فالمال يصنع الكواكب، والجمال الجسدي يفتح طريق النجاح ، والتأليف مسألة سهلة يؤدى بصورة جماعية ، وبطريقة تدل على البلاهة والسذاجة والغباء ..

وقد كشف كثير من النقاد الستار عن هذه الفضائح، فتجرأ بعض المنتجين واخذ بعض الأعمال الروائية الكبيرة لمشاهير الروائيين ، وقدمت على الشاشة البيضاء – لكن للأسف .. لقد تناولوها بغير قليل من التحرير والتشويه ، او قل انهم ألفوها من جديد ، وتدخلت فيها اذواقهم المنحرفة ومقاييسهم الشاذة .. فلم يتغير الوضع ، أو يطرأ عليه أدنى تحسن ..

وهكذا ظلت قضايا شعوبنا معزولة عن هذا الوسط الفني ، وكيف يعالج قضايانا الكبرى طائفة من الفنانين المستهترين الذين يعيشون حياة ماجنة كلها مغامرات طائشة، وزيجات متكررة ،

وتنافس في مجال الشهرة والكيد واستراق الأزواج ، وعــدم الاكتراث بمقدسات الأسرة وقيم المجتمع الذي يعيشون فيه .؟؟

ان الدراما في فننا دراما سطحية عقيمة لا فاعلية فيهـا ولا تحريض ، والكوميديا هي الأخرى تشمل مجموعة من السخريات الساذجة.. وأين هذه السخريات من سخريات برنارد شو وأبسن وغيرهما وهما يهزون مجتمعاتهم من اعماقها ، ويطلقون سخرياتهم كقذائف موجهة الى عوامل الفساد والانحلال والعبث في اوربا؟؟

كل هذا راجع كما قلنا الى فهمنا السقيم لرسالة الفن.. كثيرون يعتبرونه وسيلة من وسائل ازجاء وقت الفراغ والترفيه ليس إلا ، والبعض الآخر يتملقون به غرائز الجمـاهير ونزواتهم واحلامهم الجائعة ، وهؤلاء يعتبرونه تجارة .. أجل تجارة مخدرات لا تجد لها قانوناً يوقفها عند حدها او يلزمها الجادة ..

وقد يقول قائل : أتريد ان تفرض سيف القـــانون على كل شيء حتى الفنون؟؟ ان سياسة العصا تجعل من الفن عبداً ذليلاً.. هذا كلام فيه كثير من المعقولية من الوجهة العامة .. لكن ماذا نفعل ازاء مجتمع لم ينضج بعد تمام النضوج ؟؟

وما هو الحل بالنسبة لأدعياء الفن الذين يفرضون مفاهيمهم السقيمة ، وتوجيهاتهم العليلة على شعوب لم تدرك بعد – بصورة كاملة – حقيقة وضعها ، والطريق السوي الصادق الذي يجب ان تسير فيه ؟؟

ان التدخل في مثل هذه القضايا الخطرة المرتبطة بتشكيل

افكارنا ومعتقداتنا ومواقفنا ازاء الحياة والعالم من حولنا تدخل تفرضه الضرورة ، ويحتمه الواجب المقدس ، ويلزمنا به واجب التربية والتوجيه النبيل لجماهيرنا المنطلقة الى عالم الغد المشرق المأمول . .

* * *

والآن أين الافلام التي تعبر بحق عن قضايا شعوبنا وتاريخها وعقائدها السامية ؟؟

لقد بذلت محاولات ضحلة في هذا المجال ، لكنها كانت اضعف من ان تعبر تعبيراً صادقاً عما نريد لقد قضت عليها السطحية ، وقتلها سوء الفهم . . الفهم القاصر عن ادراك الحقائق الكبرى المتعلقة بمعتقداتنا وآمالنا ، وكان من العبث ان نطلب من منتج تاجر ، او مخرج قاصر او ممثل داعر ناقص الثقافة ان يحمل تبعة هذه المسؤلية الكبرى ، ظهر فيلم « السيد البدوي» بسذاجته وخرافاته ، وظهر فيلم « ظهور الاسلام » او الوعد الحق ، الذي كتب قصته الدكتور طه حسين بامكانياته الضعيفة وممثليه العاجزين ، واخراجه المهلهل ، وظهر فيلم « واسلاماه » بتشكيلته الغربية ، وبالادراك القاصر المشوه الأبتر للتاريخ والإسلام . وكم عبثوا بالنص الذي الفه الاستاذ باكثير وقضوا على الاشراقات النيرة التي كانت تلمع في ثنايا الرواية ، وتشبع الروح والعقل .

لم نستطع حتى الآن ان نفعل عشر معشار ما فعله . .

سيسل دي ميل .. في رواياته الناجحة الذائعة الصيت عـــن التاريخ وعن المسيحية والتي حققت من الرواج والنجاح ما اثار الدهشة وانتزع الاحترام من كل المشاهدين في انحاء العالم .

نريد عقولاً نظيفـة ذات عقيدة .. وعندمـــا يحمل هؤلاء العاملون في الحقل الفني رسالة نبيلة ، يؤمنون بهـا ويضحون في سبيلها ، فيقدمون اعمالاً كاملة في اخراجها ونصوصها وأدائها ، فسوف يعبرون حقيقة عن آمالنا وقضايانا ومعتقداتنا ، وسوف يربحون المال ايضاً .. هذا وان راحة الضمير ازاء واجب مقدس يؤديه الانسان الحق لأعظم بكثير من آلاف الجنيهات وأرصدة البنوك ..

فلنذكر جيداً ونحن نسعى لتطوير صناعة السينما في بلادنا — فهي على أية حال صناعة ناشئة في دور الطفولة — لنذكر ان الفن أياً كان لونه قطعة من حياتنا .. من آمالنا ووجداننا .. وضوء باهر يلقي على مشاكلنا ومعاركنا .. وخام أمين لرسالتنـــا الا وهي الايمان بالحب والخير والجمال والعدالة والحرية ..

تلك المثل الخالدة التي تنبع من ضمائرنا ومن معتقداتنا المجيدة وايماننا بالله العلي الكبير .. اما المسرح فقد ينطبق عليه الكثير مما قلنـــا عن السينما وسوف نعالج مشكلة المسرح في كتابنــــا « الاسلامية والمذاهب الادبية » .

وعندما نفهم هذا الفهم الشامل الواعي لقضية السينما، ونسير

بها في طريقها الصحيح فستكون اداة بالغة الأثر في تكوين الرأي العام الاسلامي .

الأدب والرأي العام الاسلامي [1]

ان دور القلم في تكوين الرأي العام الاسلامي حقيقة بديهية لا تحتـــاج لمزيد من التفصيل والاستطراد ويكفي ان القلم هو مصدر وسائل الاعلام كلهـا من صحافة واذاعـة وكتب وسينما ومسرح ..

والأدب الاسلامي الذي نريده وندعو اليه في حرارة وثقـة وهو أدب انساني ، رحب الآفاق واسع المدى، لا تحده حواجز من تعنت ، او تمسخه وعظيات جامدة ثقيلة .. « والفن الاسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحـدث عن الاسلام .. وهو على وجه اليقين ليس الوعظ والارشاد والحث على اتبـاع الفضائل ، وليس هو كذلك حقائق العقيـــدة المجردة ، مبلورة في صورة فلسفية .. فليس هذا او ذاك فناً على الاطلاق .. انمـــا (الفن الاسلامي) هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود .. هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والانسان من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان ..

---

١ — انظر كتابنا اقبال الشاعر الثائر « فصلي » اقبـــال والفن ، والنزعة العالمية في شعر اقبال .

هو الفن الذي يهيىء اللقاء الكامل بين الجمال والحق . فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود .. [١]

والفن الاسلامي لا يتعصب لجنس من الأجناس ، أو يحابي لوناً من الألوان ، يقول اقبال :

أنا أعجمي الدنّ لكن خمرتي صنع الحجاز وكرمها الفينانِ
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنانِ

والفن الاسلامي بطبيعته يحارب « اللادينية » ولا يهادن « اللاأخلاقية » لأنه فن بنـــاء ومسئولية وعقيدة ، ويجب ان يكون واضحاً انه ينازل الالحادية لانه يصادر الحريات، ويسخر من مختلف الآراء ويحد من انطلاقات العقـل وينابيعه الثرة .. « كلا » فهو يعيش جنباً الى جنب مع مختلف الثقافات والافكار، ويقارعها حجة بحجة ، وبرهاناً ببرهـــان ولم يلتزم هذا الخط العقيدي الا عن اقتناع وتجربة وايمان صادق ، فلنستمع الى اقبال مرة اخرى وهو يقول :

ما الحق مخف عن فؤادي سرّه فلقد حباني الله قلباً مبصرا
فسياسة « اللادين » عندي خسّة مات الضمير بها وأبليس افترى
لما قلى حكم الفرنج كنيسةً ساسوا كشيطان بلا قيدجرى

---

١ — منهج الفن الاسلامي للاستاذ محمد قطب .

شرهت لأموال العباد كنيسة   فاذا الخميس[1] سفير ها بين الورى

إن الالتزام في الفن بوجهة نظر معينة أمر لا نرى فيه نشازاً ولا خروجاً عن المألوف ، فما بالك اذا كانت وجهة النظر تلك شاملة رحبة سمحة ؟؟ وأمامنا عشرات الأمثلة من انواع الالتزام في الادب وخاصة في المذهب الوجودي والمذهب « الطبيعي » والواقعية الاشتراكية [2] وليس الالتزام بقضية معينة عيب كبير في حد ذاته ، وإنما العيب هو التناول الفني المشوه، فالتناول يجب أن تتوافر له كامل الخبرات الفنية ، والصفات التي تجعل من الإنتاج فناً حقيقياً لا دعوات صارخة مباشرة ، ورغم اختلافنا في وجهة النظر مع سارتر وكامو ومكسيم جوركي وغيرهم إلا أننا لا نملك إلا الاعجاب بفنهم عندما تكتمل أدواته ..

ان التزام الاديب المسلم بمضمون معين لا يعيبه او يغض من شأنه وانما يكون مدعاة لمزيد من الفخر والاحترام والتقدير ، والفن كلون من ألوان النشاط الانساني محتم عليه أن يخدم قضايا الانسان ، ويمهد الطريق لسعادة حقيقية ، دون أن يغفل جانب الامتاع والتحريض او الافادة بشتى ألوانها ..

وحين يتغنى الأديب المسلم بالوحدة الاسلامية ، ويحلم باليوم

---

١ — الخميس : الجيش .

٢ — انظر كتابنا « الاسلامية والمذاهب الادبية » .

الذي يرى فيه المسلمين امة واحدة ، ذات كيـان ملتئم ، تسهم بجهدها في اقرار السلام العالمي ، وتدلى بدلوهـــا في التطور الحضاري ، وتسعى في سبل رفاهية الانسان واسعاده ، وحين يتغنى الأديب المسلم بقضايا الحرية والعدالة والآخاء ، ويربطهـا بكلمة الله ، ويجعلها جزء من عقيدته وسلوكه وتصوراته ،وحين يستجيب المسلم لواقعه الحي ، وينفعل بمشاكله وقضاياه ويقترح الحلول لها ، ويلقى التفسيرات الواعية على معضلات مجتمعــة ، حين يفعل هـــذا الاديب المسلم يكون قد أضاف الى التراث الانساني صفحة رائعة مشرقة ..

والاديب المسلم ينظر الى التراث الحضاري في الغرب والشرق على حد سواء نظرة الاحترام والتقدير ، ويستفيد منها ويحللها ، ويدلي برأيه في أسسها وجزئياتها ، ويتمثل ما يفيـــده وينمي مداركه ، ويهضم الكثير من المقاييس الفنية ويعززها في فنه من خلال تصوره الاسلامي ..

وقد يثور في وجهنا اعتراض. . ما دمنا لم نحرز قصبَ السَبق في هاتيك المجالات الفنية ، فلماذا نجعل من أنفسنا نقـاداً لها ، ونشرحها في جرأة عجيبة ، ونأخذ ما نشاء .. لماذا هـــذا .. « التمحك » والاستعلاء الاجوف ؟

والقضية ببساطة هي ان في يدنا مقاييسَ أنزلها الله لنـــا ، ودعانا إلى الأخذ بها ، ووهبنا بصائر وابصاراً لنحقق في كل ما يرد الينا ، ثم أننا مجتمع له ظروفه ومقوماته وواقعه الخـــاص

ومعتقداته .. واخيراً لنا شخصيتنا التي نأنـــف أن نذيبها في شخصيات الآخرين ، اونسجنها فيربقة التقليد الأعمى ، وخاصة ان الفن بشتى صوره وألوانه مدعاة للتغير والاختلاف ، وقـد تتعدد فيه الآراء بتعدد الافراد المتذوقين .. فالفن شيء غـير العلم الثابت بالتجربة والأدلة الدامغة .. وفي الوقت نفسه اصبح من المؤكد أننا قد تخطينا دورالتقليد والاعتماد على الغير ،وغدونا في طور خلق وانشاء وصار لنا فنون ومعارف وثقافات وعلماء كبار وفنانين مجيدين ، وبذلك أعطينا الحق في أن نتفحص ما يفد علينا من ثقافات وفنون .

فلا عيب في ذلك ولا غرور .

وانما العيب كل العيب ان نبقى عالة على غيرنا ، واذناباً لهم .

إن تيارات الفن الغربي وحدها لا تكفي الحضارة الانسانية . وتيارات الفن الشيوعي لا يمكن ان تقوم وحدهـــا بإسعاد البشر .. فالانسانية في ظمأ دائم الى الجديـــد .. الى مختلف التيارات الخالقة المبدعة من الشرق والغرب .. من كل المفكرين والفنانيين .. وفي ظمأ دائم الى الإشعاعات الروحية وآيات الله الخالدة في كل زمان ومكان .

واقول إن « الاسلامية والمذاهب الادبية » لها مجال تفصيلي غير هذا المجال .. وما نريد ان نقوله هنا هـو أن الأديب المسلم يجب أن يساهم بنصيب موفور في إنماء الوعي العام ، وفي تكوين

رأى اسلامي تجاه المشاكل المحلية والعالمية ، وأن يبث افكاره المدروسة الراسخة في أعماقه في كل مكان ، في الصحف والمجلات وكل وسائل الاعلام ، والا يتقاعس عن هــذا الدور ويطالب بمكانه في كل هذه الأماكن ، ويفرض نفسه فرضاً على منتدياتنا الأدبية الفكرية لا بالقهر والجهل والعنجهية وإنمـا بالتكوين الصحيح لثقافاته وأفكاره ، وبالدرس المتصل ، وبالأعمال الفنية الجيدة .. وأن يخوض مجـالات القصة والشعر والمسرحية ومختلف الأشكال الأدبية والفنية .

وعندما يكون للكلمة المؤمنة الواعية دورها الراسخ الفعّال وعندما تستقر في أذهان الجمهور القـارىء والسامع والمشاهد ، ويقتنع بها فسوف يكون الطريق الى الاتحاد الاسلامي أقصر ، وسوف نبلغ ما نريد باذن الله ..

المسجد : ليس المسجد – ذلك البناء الكبير الواسع – مجرد مكان للعبادة فحسب ، ان هذه الساحة المقدسة التي يلتقي فيها المسلمون ويجتمعون صفوفاً بين يدي الله ، ويضرعون بالصلوات والدعوات، لا يصح ان يكون صومعة صامتة مغلقة على أصحابها بل يجب أن يتحول الى مصدر من مصادر الإشعـاع الفكري والثقافي ، يجب ان يصير منبراً حياً متطوراً تعالج بين أروقته مختلف القضايا التي تهم الجماهير ، إنه بطبعه خلية حية ، كان « برلماناً » في الماضي تعرض فيه شتى الآراء والمدارس الفكرية ، وكان معهد للتدريس وتفهم الدين وأصوله ، وتداول المسائـــل

الفقهية والنظر فيها ، ان المسجد الحديث يجب ألا يقتصر على إقامة الشعائر وحدها ، فمن الضروري ان تلحق به مكتبة حديثة منظمة بها كل ألوان الفكر والثقافة ، ولا تقتصر على الكتب الدينية وحدها ، بل تضم كتب الاقتصاد والأدب الهادف والفلسفات الجادة ، ويجب ان تلحق به المدارس بشتى مراحلها في مبنى ملحق به ، ولا بأس ان تقوم الى جواره المصحات والمستشفيات والصيدليات ، ودور الضيافة للغرباء والمحتاجين والفقراء ، ولما لا يضم أيضاً أندية ثقافية ورياضية ، حتى تربى فيه الأرواح والأجسام والعقول ، وحتى يعطي صورة صادقة للدين في شموله وعمومه وارتباطه بحياة الأفراد والجماعات ، فنقضي عملياً بذلك على العزلة التي فرضها الفكر المنحرف على الدين ، ومحاولة جعله مجرد علاقة بين العبد وربه ؟؟ ولما لا تلقى فيه دروس الدين والوعظ ، وتقام الى جانب ذلك دروس في الصحة العامة والثقافة والسياسة ، والارشادات الزراعية ، والفنون الجادة الموجهة التي تنمي ثقافة الجماهير ، وتربي أذواقهم ؟؟ لما لا يكون فيه الواعظ والمدرس الأخصائي الاجتماعي والمثقف الصحي والمدرب الرياضي بل لماذا لا تلحق به خشبة للمسرح تلعب فوقها أدوار البطولة ، وتقدم عليها قصص الكفاح ، والشخصيات والعبقرية في تاريخنا القديم والحديث ..

إن إسلامنا أوسع من ان يضيق بهذه الألوان قاطبة ، وأن فيه من الوعي وسعة الإدراك ما يجعله يتذوق تلك الوسائل

الحديثة في تربية الروح والجسد والعقل ..

وخطيب المسجد هو الآخر لم يزل في حـــاجة الى العقل والتطور، لم يزل في قرانا وعاظ يدعون للسلطان وخليفة المسلمين ولم يزل فيهم من يتشدق بالاحـاديث المكذوبة والاسرائيليات الساذجة وكثيرون منهـم يحفظون - عن ظهر قلب - خطبـاً عثروا عليهـا في دواوين قديمة لا تتفق وروح العصر ولا تتمشى مع مفاهيمه ولا مراحل التطور الكبير في مجالات العلم والثقافة، وخطباء قرانا ما برحوا يرددون معجزات بعض الأولياء وكرامتهم فيعطون بذلك للدين صورة أبعد مـا تكون عن حقيقته صورة الخوارق التي تشده العقـل ، وتثير العجب ، وتنتزع الدهشة ، ووعاظ قرانا ما فتئوا يهتمون بالسجع والمحسنات اللفظية ، ولا يطرقون قضايا الجماهير ومشاكلهم إلا اذا أورد اليهم « أمر » من وزارة الأوقاف ..

لم يعد كافيـاً أن يحصل الواعظ على شهادة كلية الشريعة أو أصول الدين ، وإني لأهيب بوزارة الأوقـاف والأزهر الشريف ان يعيدا تخطيط السياسة المرسومة للوعاظ وتكوينهم ، فلينشأ مثلاً معهد للتأهيل يتلقى فيه الواعظ دروساً في الثقافة العـامة وفي الدراسات النفسية والاجتماعية وغيرها ، ولا يصح ان يحمل أمانه توجيه الجماهير قبـــل أن يتم تأهيله على الوجه الكافي فمن العبث ان يعتلي المنبر رجل فقد حماسة العمل - لتكرار عمـله الرتيب - ويظل يرطن بكلمات مسجوعة غير مفهومه وبأسلوب

لا تتذوقه جماهير الحاضرين التي لم تؤت من الثقافة إلا القليل ، وترتفع عقيرته بالصيحات المألوفة ، والنعاس يداعب العيون ، ويثقل على الرؤوس ، فاذا ما انتهت الخطبة وفي ذيلها الدعوات المألوفة ، قام المصلون يترنحون ليؤدوا الشعائر تأدية الله بها أعلم.

اننا اليوم نؤهل المدرس والمهندس والطبيب ، حتى مصلحة السجون أنشأت معهداً لتأهيل السجانين ، فلا أقل من أن نهتم بهؤلاء الوعاظ ، فهم ممثلون للدين في نظر الجماهير ناطقون باسمه وعبادئه ، معبرون عن كلمة الله وسيرة رسوله ، دعاة للحق والعدالة والأخوة ..

ليس الوعظ مجرد وظيفة .. ولكنه رسالة ..

وليس المسجد صومعة مغلقة .. ولكنه عالم واسع كبير ..

وليس مكاناً لتأدية الشعائر فحسب ولكنه مدرسة وبرلمان ومسرح ومصحة للعقول والأبدان والأرواح ، ومنتدى لألوان النشاط الانساني بفروعه وأشكاله المختلفة ..

وأخوف ما أخافه ان يظل المسجد في قصوره وانعزاله ، وأن يظل علماؤنا الدينيون في اسار القديم ، والاستهتار بالمهمة المنوطة بهم ، وأن يظل الأزهر ووزارة الأوقاف غير مدركين لخطورة المسألة ، فيضعف سلطان المسجد على النفوس ، ويقل أثره ..

وصدق رسول الله حين قال عن رب العزة : « ان بيوتي في

الأرض المساجد ... الخ »

بهذا الفهم للمسجد ورسالته بالنسبة للدين وبالنسبة للحياة نستطيع ان نجعل منه قلعة حصينة من قلاع الرأي العام الاسلامي ، وذخراً أي ذخر عندما تدلهم الخطوب ، او تضطرب الأمور ، وينبوعاً لا ينضب من ينابيع الخير والرحمة والتثقيف والتوجيه .

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله .. الآية »

الازهر : لا جدال في أن اسم الأزهر اصبح مرتبطاً اوثق الارتباط بالاسلام .. كيف لا وهو يستمد من الدين بقاءه ، وينكب على نصوصه ومبادئه وأحكامه ، ويترهب بعلومه وفقهائه ومذاهبه المختلفة ، ولا اريد ان يمتد بنا الحديث عن الأزهر بعد التطورات الاخيرة التي دخلت أروقته ، وغيرت مناهج الدرس والبحث فيه .

ولقد كتب الاستاذ « فتحي عثمان » في كتابه « الفكر الاسلامي والتطور » [1] عن هذا الموضوع ووفاه حقه ، وناقش قضيته في ايجاز كاف ، وتعرض لمختلف الآراء الاصلاحية والتطويرية بما فيه الكفاية ... ولقد كتبت في احدى المجلات الدينية بعد صدور لائحة الأزهر الجديدة قائلاً تحت [2] عنوان

---

(١) ص ٢٥١ – ٢٦٤ .

(٢) الاعتصام عدد ٨ السنة الثالثة والعشرون .

« الازهر الجديد » .

« كانت القرارات الأخيرة التي صدرت بشأن الأزهر الشريف مفاجأة هذا العام الكبرى بل انها من أبراز أحداثه ، وستكون على مر الأجيال نقطة انطلاق رائعة ، وتطوراً تاريخياً مجيداً.

« والحقيقة الناصعة التي لا يماري فيها أحد أن علماء الاسلام في الماضي كانوا ضرباً فريد في سعة مداركهم ، وامتداد ذكائهم فقد كان الفقيه المسلم يدرس الفقه والحديث والتفسير وغيرها الى جانب الطب والفلسفة والهندسة والحساب والطبيعة او الفيزياء .. كان الرازي طبيباً نابهاً ، وكان ابن سينا طبيباً وفيلسوفاً ، وكان جابر بن حيان من روادعلم الكيمياء ،واستطاع ابن النفيس أن يكون أول من اكتشف الدورة الدموية, وليس « هارفي » العالم الاجنبي هو أول من اكتشفها .

وبلغ ابن الهيثم شأواً كبيراً في علم البصريات .

ثم توالت على الازهر حقب من الظلام والجمود الفكري فتعطلت رسالته أو تجمدت بتعبير أدق ، ولم تجار الأحداث الحضارية . وتستفيد من الاكتشافات العلمية الحديثة ، فلا عجب اذا ما فتح الازهر اليوم أبواب كليات الطب والهندسة والعلوم الطبيعية ، وانما العجب ان يبقى الأزهر بعيداً عن هذه المجالات ولا يتأثر بها ويؤثر فيها ، وهو الجامعة الكبرى التي أنارت في الماضي طريق الحائرين وأن يهم بشتى ضروب العلم والعرفان ، وساهمت بنصيب موفور في حركات التحرر الكبرى ضد قوى

الاستعمار والطغيان والإلحاد .

لكن يجب ألا ينسينا هـذا الزحف الثوري مسألة تعتبر من أهم المسائل وأدقها .. ان الأزهر جامعة اسلامية ، تحمـل على عاتقها رسالة الدين الحنيف ، وتغذي العالم الاسلامي بغذائهـــا الروحي الذي لا حياة بدونه ..

لذا يجب ان يظل للأزهر طابعه المميز ورسالته الدينية، وألا يجعل منه هذا التغير مجرد جامعة عادية لا تختلف كثيراً عن أي جامعة من جامعات العالم .. »

بهذه الروح الفرحة استقبلنا قرارات الازهر ، وطربنا أيمـا طرب لتلك الخطوة التي سوف تزيل عن جبـــين الأزهر وصمة الجمود والتخلف عن ركب الحياة المندفع ، وكم يكون جميـلا لو استطاع الذين اصدروا هذه القرارات ان « يطعموا » الدراسات بالجامعات الأخرى بالثقافات الدينية ، او أن ينشؤا كليـــات « لاهوتية » كما يقول الاستاذ « فتحي عثمان » وفي ذلك تـأكيد لأهمية الدين وضرورته الملحة في موكب الحيـــاة المنطلقة بلا توقف او جمود .

والأزهر جامعة عالمية يفد اليه المسلمون من شتى بقاع الأرض، ويأتي اليه شباب من أعماق القارة السوداء ومن أطراف آسيا ، ورسالة الأزهر تجاه هؤلاء الشباب ليست مجرد التثقيف والتعليم وانما بث فكرة الوحدة الاسلامية في نفوسهم ، وتربيتهم عليها،

وحثهم على اعتناقها بصدق ، والدعوة اليها في بلادهم ، واعتبارها جزء لا يتجزأ من العقيدة الدينيـة التي دعتهم لأن يقطعوا المسافات الشاسعة ويتكبدوا المشاق والغربة من أجلها .

ولتكن البعثات الدينية التي يبعث بها الأزهر في شتى أنحاء المعموره مهمة مقدسة ، وليست مجرد رحلة طريفـة ، وتغيير جو ، واستفادة مادية ، ونوعاً من الامتياز والاستعلاء ، ان هؤلاء المبعوثين يحملون على كاهلهم تبعة كبرى ، ألا وهي تقديم الاسلام في تلك الأطراف النائية تقديماً واعياً ذكيـاً ، ولفت النظر الى فاعليته وايجابيته فيما يتعلق بقضايا تلـك الشعوب الداخلية والخارجية فليقدموا لهذه الشعوب التي ترفع عـن كاهلها أعباء الاستعمار المقاييس الصحيحة .. وليكيفوا نظرتهم الى الحياة والوجود تكييفاً سليماً ، ولينفوا عن الاعـلام – في لباقة وصدق – تلك التهم الخبيثة التي يلصقها أعداء الاعلام به، وليكونوا مُثُلاً صادقة للعقيدة التي ينوبون عنها ، ونماذج طيبة للجامعة الكبرى التي حمّلتهم هذه الرسالة ، ولن يستطيـع الأزهر أن يساهم بنصيبة الكبير في خلق رأي عام اسلامي إلا إذا أدرك خطر عبئة ، وكانت له الامكانيات الكافية ، وخرج علماؤه عن صمتهم ودورانهم في الفلك القديم ، وكشفوا عـن جديد متطور في ادراكهـم ودراساتهم ، ورفعوا أصواتهم قوية مجلجلة ، واتخذوا كل وسائل الاعلام الحديثة ، وخلقوا لهم صحفاً ومجلات ونشرات ، واسمعوا العالم صوتهم في المحافـل الدولية

المختلفة ، وأدلوا بآرائهم في الأمور التي تدخل في دائرة اختصاصهم ، واصبحوا منارة يهفو الى ضوئها جماهير العالم الاسلامي ، عند ذاك سيصيرون فعلاً ورثه الانبياء وصوت الحق والعدل والحرية .

الحج : ذلك المؤتمر العالمي الكبير بجموعه الغفيرة التي تفد من وراء الجبال والبحار ، يحدوها شوق الى الله ، ويدفعها ايمان بالرسالة الخالدة ونبيها صلوات الله عليه ، وذلك اللقاء الفريد الذي تتعانق فيه الأرواح والقلوب ، ويلتئم فيه شمل المسلمين في أخوة صادقة على صعيد واحد ، حيث مهبط الوحي ، وأرض الرسالة ، وذكريات النبوة العاطرة ، وعشرات من اللهجات والسحنات والألوان .. ملوك وسوقة ، رجال ونساء ، شرق وغرب ، اتجهات شتى يجمعها معنى واحد كبير ، لم تستطع حواجز الزمان او المكان أن تعوق مواكبهم المتسابقة الى هاتيك الأماكن المباركة ، ولم تستطع مذاهبهم المتباينة ، ولا دولهم المختلفة أن تفصل الروح عن الروح ، او تنال من أخوتهم الباقية على الزمن او تقف حائلا دون لقائهم العظيم ..

ان الحج شعيرة رائعة عميقة المغزى بعيدة الأثر ، لها حكمة جليلة ، وهدف سام نبيل ، وضرب النبي صلى الله عليه وسلم أصدق الأمثلة وهو يؤدي هذه الشعيرة ، كان يخطب في وفود المسلمين ويعلمهم شئون دينهم ودنياهم ، ويحدثهم عن النفوس والحياة ، والانسان والمستقبل وعلاقاتهم بالدول المجاورة ، ويؤكد في قلوبهم معاني الايمان ويثبتها ، ويوصيهم بالاتحاد

والأخوة والتفاني في سبيل الحق ، ويحفزهم الى العمل والجد ، ويخطط لهم آمالهم وآمال الدعوة فيهم ، ويلم بشتى قضاياهم ومشاكلهم الماما دقيقا شاملا.. وصدق رسول الله حين مجد هذه الشعيرة العظيمة عن ابي هريرة قائلا :[1]

« الحجاج والعمار وفد الله ، ان دعوه أجابهم ، وان استغفروه غفر لهم » .

لكأنى بحكومات العالم ودوله ، وصحافته واذاعتة ، يرون الحج ، وقد أصبح شيئاً له خطره الكبير ، فينتظرون على أحر من الجمر قرارات ذلك المؤتمر العالمي الذي يمثل ملايين البشر من المسلمين ، ويترقبون ما تسفر عنه اجتماعاته في اشفاق وقلق . . ويعملون ألف حساب وحساب لكلمة الأمم الاسلامية ، وفيما يتعلق بمصيرهم الشخصي وخطتهم في السير ، وفيما يتعلق بقضايا الانسانية عامة .

عندئذ تصبح وحدة العالم الاسلامي أمراً واقعاً ..

ويصبح الرأي العام الاسلامي حقيقة لا حلماً ..

ان هذه الملايين من المسلمين ، اذا صحت عزائمها ، واتخذت للامر عدّته ، وتسلحت بالعلم والخبرة والفكر الحر ، واجتمعت على كلمة الله .. لو فعلت ذلك لأصبح لكلمتها وزن ، ولقدمت

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه .

للانسانية القلقة شيئاً كبيراً ، أو سعادة حقيقية ..

المؤتمرات الدورية :

ولا يقف دور المؤتمرات عند بحث الشئون العامة للمسلمين ، ومناقشة قضاياهم الحاضرة ، وفض ما بينهم من خلاف ، وتنمية الاحساس بضرورة الوحدة الاسلامية ، والتجمع الدولي حتى تصبح أمة متميزة بقيمها وفضائلها وحبها للانسانية ، تؤمن بالله وتدعو الى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ..

نحن في حاجة الى مؤتمرات دورية تعقد كل فترة زمنية ، أو كلما دعت الحاجة اليها ، فهناك كثير من المسائل الفقهية المتطورة التي تتغير من زمان الى زمان ، وتتأثر بالبيئة ، هذه المسائل لها أصول ومبادىء عامة يجب أن يحافظ على روحها عند التطوير كي تلائم حالة العصر ، ومثل هذه الأمور الشرعية في حاجة الى اكثر من عالم متفقه ، وفي حاجة الى مناقشة الآراء وتبادل وجهات النظر ، حتى يمكن الوصول الى نتيجة مجدية ، وبذلك نحمي تراثنا ونتطور به ، ونستفيد من حكمته السامية .

ولنضرب لذلك مثلا ، ان المشكلة الاقتصادية في الاسلام في حاجة الى مزيد من الكشف والتحقيق والتمحيص ، فما المانع أن يعقد من اجلها مؤتمر كبير ، يلتقي فيه علماء القاهرة وكراتشي واندونيسيا والمغرب والشام والعراق والسعودية ، علماء دين ، واساتذة اقتصاد ، ومتخصصين في التاريخ والدراسات

الاسلامية ؟ ؟

وفي مثل هذا المؤتمر تلقى البحوث ، وتناقش الآراء المختلفة ثم يحاول المجتمعون أن يصلوا الى نتيجة محددة واضحة ..

ولا تقتصر أعمال المؤتمرات الإسلامية على الدراسات الفقهية، بل تتعداها الى الجوانب العلمية الأخرى من طب وهندسة وفن وفلسفات ، حتى نتخذ موقفاً موحداً في شتى ألوان المعرفة فنقضي بذلك على كثير من البلبلات الفكرية والعلمية والفنية ، ونعيش في ظل نظريته أعني عقيدة مبلورة واضحة ، ولا نتيح بذلك الفرصة للتيارات المنحرفة والأفكار المسممة كي تؤدي دورها المدمر في مجتمعاتنا الاسلامية ، ونحاول جاهدين – في نفس الوقت – أن نستفيد من كل جديد مجد ثبتت صلاحيته في الشرق او الغرب ، ونطعم أفكارنا بما يفد علينا منه ، حتى لا نعيش في عزلة ، وحتى نشارك في تصحيح المفاهيم المستحدثة ، ونضيف اليها ما نستطيع اضافته ونثبت وجودنا في المجال الدولي ونعطي الدليل العملي على أننا أمة ذات كيان قوي تساهم في اثراء التراث الانساني عامة .. وليلتق شبابنا في مهرجانات ثقافية ورياضية ، وليكن بينهم من وسائل التعارف والتقارب ، ما يقضي على الشتات ، ويبعد مظاهر الغربة التي فرضت نفسها بين شعوبنا العريقة لتتاح لهم الفرصة الكافية كي يفهموا الأوضاع القائمة ويفكروا في المستقبل ، وليقم بينهم جو من التبادل الفكري يقرب مشاربهم وأهوائهم ، ويلوّن نظرتهم الى الحياة

والعالم بألوان شتى .

ومن الضرورة بمكان ان يوضع تخطيط خاص بجغرافية وتاريخ العالم الاسلامي لا من ناحية التضاريس والبحار والأنهار وأهم المدن ، وانما يهتم اهتماماً خاصاً بمنابع الثروة في هذه البلاد ، الثروة الحالية والثروة المهملة التي لم تستغل بعد ، وأهم الوسائل الخاصة بالاستفادة من هذه الثروات ، حتى يقوم اقتصادنا وتجارتنا ومشروعاتنا الانتاجية على أساس سليم ، وتقدير صحيح لامكانياتنا ، من خلال وجهة نظرنا نحن – أصحاب الثروات – لا من خلال وجهه النظر الاستعمارية ، وأن يستغني عن خبرات المستعمر متى توفرت لدى أية دولة من الدول الاسلامية مثل هذه الخبرات ..

وليسهروا على التاريخ الاسلامي والتاريخ القومي لدولنا ويدرسونه دراسة « تقييمية » لبيان ما فيه من مثان ومثالب ، وأخطاء وأمجاد ، وفي ذلك ما فيه من الفائدة ، وأن تُركز الأضواء على نواحيه المشرقة كي تحتذى وتتخذ نبراساً[1] ..

ليس هذا فحسب ، بل ان تدريس جغرافية العالم الاسلامي وتاريخه يجب ان تكون فرضاً على مدارسنا في كل بلد اسلامي وأن تعطى من الجلاء والوضوح والاهتمام . ما هي كفيلة به ..

---

(١) أنظر ما قبله .

ولتعقد المؤتمرات « الطارئة » في أي موعد يتطلب ذلــك ، وخاصة عندما يحدث أي توتر ، أو ينشب أي خلاف بين دولنا الشقيقة وأن يقضى على مثل هذا التوتر في الحال حتى لا تكون هناك فرصة لأعداء الاســلام كي يوسعوا من شقة الخلاف أو يصطادوا في الماء العكر .

والاسلام في مثل هذه الأمور الحيوية التي تهدد سلامة الوحدة الاسلامية لا يعرف المواربة او المجاملة على حساب قضيــة الحق والمثل العليا ، بل يجهر برأيه في صراحة وقوة ، لا ترهب ظلماً، ولا تحابي حاكماً ، ولا تمالىء مأجوراً أو خائنــاً ، فاذا ما خرج حاكم من حكام المسلمين ، أو دولة من دوله عن الجادة ، كان على باقي الدول ان تبين الخطأ الواقع ، وتوضح الخطر الجاثم ، وتتقدم بالنصح والتوجيه ، وتحذر من سوء العاقبة ، فاذا لم يجد هــذا كان علينا نحن المسلمين ان نفعل ما يمكننا فعــله ازاء اي ضرر يحيق بالامة ووحدتها ، على ضوء الحديث النبوي الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الايمان .

وفي غمار هذا كله يجب ألا ننسى الآية الكريمة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا .. اعدلوا .. هو أقرب للتقوى.»

ومثل هذه المؤتمرات في عنقها أمانة كبرى يجب ألا تنكص عن آدائها .. مشكلة تتعلق باللغة .. ان اختلاف اللغات في العالم الاسلامي يقف حجر عثرة في سبيل التبــادل الفكري والثقافي

بينها، ونرى حلاً لهذا المشكل ان تؤلف لجنة خاصة بالترجمة من العربية واليها ، هذه اللجنة يجب ان تضم عدداً كبيراً من خيرة المترجمين ، وأن تعطى لها الامكانيات المادية والعلمية والفكرية التي تؤهلها للقيام بمثل هذه المهمة ، والا تقتصر مهمة هذه اللجنة على ترجمة التراث الديني فحسب بل تتعداه الى كل فروع المعرفة من فنون وعلوم وفلسفة ، أليس غريباً ان تظل بعض مؤلفات الفيلسوف الشاعر الدكتور محمد اقبال وهو المفكر الاسلامي الأول في عصرنا - أن تظل دون ترجمة ودون تقييم كامل ؟؟ وقبل ذلك أليس غريباً ألا نعرف عنه الا نتفاً قليلة حتى عهد قريب ، أي عندما قام المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام بنقل بعض أشعاره وترجمة حياته ؟؟ ان اقبال صاحب اتجاه مميز في الفكر والأدب والفلسفة ، وكان جديراً بكل شباب العالم الاسلامي ان يعرفوا عنه مثلما يعرفون عن أعلام الاسلام الكبار في العصور القديمة والحديثة على السواء ..

ويجرنا الحديث عن الترجمة الى الحديث عن اللغة العربية ..

انها لغة القرآن .. بها نزل .. ولغة الحضارة الاسلامية العريقة التي امتدت عبر الأجيال والسنين ، وقامت بأخطر دور في تطوير المعارف الانسانية المختلفة ..

أجل انها لغة حضارة.. وهي أيضاً لغة أكبر جامعة اسلامية في العالم .. الأزهر .

لغة الشعر والعلم والأدب والفقه ..

لماذا لا نحاول جادين أن نجعل لغة القرآن لغة لنا جميعاً في

شتى بقاع العالم الاسلامي، أو على الأقل لماذا لا تكون لغة ثانية اجبارية تدرس في كل مدارس الباكستان وأندونيسيا وأفريقيا المسلمة وآسيا المسلمة ؟؟

ألا ترون أن مثل هذا العمل الجبار كفيل بأن يسهل مهمتنا، ويقرب ما بيننا من شقة بعيدة ويجعلنا أشد ارتباطاً ووثوقاً ؟؟

وبالنسبة للعامية في البلاد الناطقة العربية ، يجب ألا تكون لغة كتابية على الاطلاق ، حتى لا تقف هي الأخرى حجر عثرة في الفهم والتجاوب الفكري والعلمي بيننا ، حقاً ان الامية لم تزل فاشية لكن نسبتها تتناقص رويداً رويداً ، وعندما تصبح نسبة التعليم مائة في المائة ، فستصبح مشكلة الكتابة بالعامية غير ذات موضوع ..

واذا زعمنا اننا نكتب العامية لحاجة جماهيرنا ، فإن هذا زعم باطل لأن الأميين لا يقرأون ، واذ زعمنا أنها لحاجة فنية ، فإن الفصحى تقصر عن التطور والأداء الفني الكامل ، والدليل على ذلك ما قدمه أدباؤنا الكبار أمثال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبدالله وعلي احمد باكثير وأدباء كثيرون في الشام والعراق والسعودية وغيرها ..

فمشكلة اللغة ومشكلة الترجمة هما على رأس القائمة التي يجب أن تهتم بها مؤتمراتنا الاسلامية التي ندعو اليها .

ولضمان بقاء هذه المؤتمرات واستمرارها في أعمالها، يجب أن

يكون هناك مكتب دائم ولجان تحضيرية ، ومكاتب فرعية تمثل المؤتمرات في كل أنحاء العالم الاسلامي ..

وقد يكون أفضل من هذا كله قيام «هيئة الامم الاسلامية» وفي ظلها نستطيع ان نقيم كل التنظيمات ، وأن نكفل لها النجاح المنشود ، عندئذ يكون الرأي العام الاسلامي حقيقة واقعية وقوة فعالة مؤثرة .. وحلماً تحقق ..

والآن يتبادر الى الذهن سؤال خطير .. من يقوم بهذه الأعمال ؟؟

الحكومات .. ام الشعوب ؟؟

من الاضمن لكل عمل كبير ناجح ان يرتبط بالقاعدة الشعبية بجماهير الشعب التي تحس الحاجة اليه ، وتتشوق الى تحقيقه ، وتسعى حثيثاً بغية الوصول اليه .. غير ان الشعوب عادة تفتقر الى الامكانيات المختلفه ، وتفتقر الى السلطة التنفيذية الحاسمة الحازمة .. ثم ان مفهومنا عن الحكومات هي أنها تعبير عن الارادة الشعبية المسلمة ، وصدى لما يعتمل في نفوس أبنائها والقائمين على مصالحهم وآمالهم وسعادتهم ، وبهذا تكون الحكومة - من الوجهة النظرية - هي الشعب أو جزء من الشعب .. وبالطبع لا ينطبق مثل هذا الكلام على حاكم كشاه ايران يعترف باسرائيل متحدياً مشاعر المسلمين ، ويسوق شعبه بالعصا والكرباج ، ويقهر ارادة شعبه ويسخر من أبطاله ومكافحيه ،

ويبيع نفسه وبتروله وشعبه للرأسمالية الغربية ..

فالواجب اذن هو واجب شعوبنا الحرة.. وهو أيضاً واجب حكوماتنا العادلة المنبثقة عن ارادة مواطنيها ، لاننا لا نؤمن بمنطق التجزئة ، وفصل الحكومة عن الشعب ..

وعندما تلتقي رغبات الشعوب مع ارادة الحكومات حول هذا المعنى الاسلامي التقدمي فستكون تلك الصورة المثالية الفضلى التي نسعى وراءها ، ونجد في بلوغها ..

وجود مركزاً اشعاعي :

والآن هل من الضروري ايجاد مركز اشعاع فكري للدعوة الاسلامية مثل هذه الحركة وتسهر عليها ، وتتولى قيادتها ، وتكون هي الرأس والرئيسة لهذه المجموعة من الدول ؟؟

سؤال طرحه الاستاذ المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتابه « فكرة كومنولث اسلامي » .. فقال : [1] « .. ان هذا التحقيق لا يمكن ان يقع ابتداء من المحيط الى الداخل ، ولكن من الداخل الى المحيط ، أو هو لا يتعين أن يقع ابتداء من نقطة إشعاع ، ولكن يجب ان ينتهي الى نقطة التقاء .. والنزوع الى الاتصال ، يجب ان يأتي من الداخل متجهاً صوب نقطة الالتقاء هذه فإن الاتصال لا يمكن ان يفرض من الخارج . »

---

(١) صفحة ٣٦ .

ان الاستاذ مالك لا يؤمن « بنقطة الاشعاع » ، ولكنه يرى ان تقوم الارادة من داخل الشعوب الاسلامية نفسها ، وتتلاقى ارادات الشعوب ، وعندما تتلاقى تتحقق الفكرة ، اما ان تقوم دولة معينة وتحمل الفكرة وتدعو اليها في الحاح وايمان واصرار ، فسوف تؤول مثل هذه الحركة تأويلا سيئاً ويلصق بها تهم كثيرة ذات ضرر بالغ ، فنراه يقول [1] : (وقد كان هذا التخطيط .. « نقطة الاشعاع » ذا قيمة منذ ثلاثة عشر قرناً مضت ، لانه يمثل على وجه الدقة المجرى الذي اتبعه اشعاع الفكرة الاسلامية ، الذي كتب له ان يبدأ انطلاقه من نقطة مركزية هي مكة « على وجه التحديد ») .

« ولم يكن لهذا الاشعاع في ذلك الحين ، ان يقع بطريقة غير الطريقة التي سار عليها ، وذلك لما فرضته عليه الشروط التاريخية من اتجاه محدد » ..

« أما اليوم فان هذا التخطيط – على العكس من ذلك – لم يعد ذا قيمه لاسباب عديدة ، لعل أهمها ، وما يمكن ان تؤول به « النقطة المركزية » التي تشع منها الفكرة في المجال السياسي باعتبارها ادارة خاصة تسعى الى فرض هذه الفكرة على غيرها ، ولنكن على يقين من انه سيوجد حينئذ في العالم ما لا يستهان به من المصالح الغريبة عن العالم الاسلامي ، التي ستتولى تأويل

---

١ – فكرة كومنولث اسلامي ص ٣٧

الفكرة على هذا النحو طواعية ومن غير ما تحرج ، علاوة على ما يوجد في هـــذا التخطيط من عوارض اخرى تتعلق بالمنهج وبتسهيل العمل .. واذن فهو تخطيط يتعين تجنبه » ..

ان المؤلف لا يريدها ارادة خاصة .. ولكنه يريدها ارادة جماعية .. لا يؤمن بالنقطة المركزية او نقطة الاشعاع.. ولكنه يؤمن بنقطة اللقاء ..

نحن نتفق مع مالك بن نبي على ان لقاءنا الاسلامي يجب ان يتحقق وينبثق من ارادة جماعية ، هذه الارادة الجماعية يصنعها الرأي العام الاسلامي الذي نسعى الى تكوينه ، ونبثه في قلوب الجماهير الغفيرة في ارض الاسلام،بكل وسائل الاعلام.. بالكلمة المقروءة والكلمة المسموعة وبالوسائل المنظورة .. ومثـل هذه الوسائل يجب ان تنطلق من نقط مركزية لا نقطة واحـــدة ، ومن مراكز اشعاع كثيرة لا مركز واحد ..

الفرد في رأينـا مركز اشعاع .. وعواصم الاسلام مراكز اشعاع .. والدول والحكومـات الواعية هي الاخرى مراكز اشعاع .. وكل فكرة تحتـــاج الى من يتبناها ويؤمن بها ايمانـاً صادقاً ، ويدعو اليها في حرارة ، وتحتاج الى نقط تجمع ..

ونحن اذا لا نؤمن بمثل هذا التقسيم المبالغ فيه ، ولا يرهبنا سوء التفسير الذي سوف يصنعه المغرضون عن حركتنا ، فسوء الظن وسوء التفسير من جانب الأعـــداء موجود ما بقيت الارض والسماء .

ولست مع الاستاذ مالك فيما يراه من ان ثلاثة عشر قرناً من الزمان قد غيرت المنهج الاشعاعي المركزي .. ان الجاهلية الحديثة ، تتشابه في مظهرها العام مع الجاهلية القديمة ، ولن يمزق شعار تلك الجاهلية الا رسل جدد للحب والحرية والخير والرخاء « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، مثل هذه الامة ، قد تصرخ بدعوتها في الهند او الملايو او المغرب او مصر ، قد تقوم في واحدة منها ، فيتردد صداها في انحاء العالم الاسلامي ، وقد تقوم دفعة واحدة في اكثر من بلد من هذه البلاد ..

ومن ثم لا مبرر اطلاقاً لهذا التخطيط الذي خططه المفكر الجزائري الكبير ..

واخيراً وليس آخراً نقول ان معنى وجود المصدر الاشعاعي او النقطة المركزية ، لا يفهم منه فرض مبادئنا الاسلامية على الناس قهراً وارغاماً ، لانه يتنافى أساساً مع سماحة الاسلام وايمانه بحرية الرأي، وفكرتنا الاسلامية تقوم أساساً على الاقتناع الذي لا غمط فيه ولا تحايل ولا ارغام ، وتستمد سلطانها من دعوة الله لها ، واستجابة الجماهير لجدواها ، وليس معناها ان نسوق الجيوش ، او ندبر المؤامرات لفرض هذه المباديء على الناس فرضاً بقوة السلاح ..

بهذه المفاهيم الصريحة الجليلة نستطيع ان نطعم الرأي العام الاسلامي ، ونقيه شر الانحراف وسوء الظن ، وعسف

التفسيرات العدائية ..

التكتلات الاخرى ..

اننا نؤمن بالوحدة للشعوب الاسلامية كلها ، لا كتكتيك سياسي او استراتيجي فحسب ، بل كواجب ديني منبثق من عقيدتنا السمحاء ، وقد دعمت هذا الاعتقاد تجاربنا التاريخية والكفاحيه ، وأيدته مصالحنا المشتركة ، فبوحدتنا في الماضي استطعنا ان ننتصر في اكبر معركة أعني أخطر حدثين في تاريخنا الاسلامي ، وهما العدوانات المغولية التترية والعدوانات الصليبية المتكررة ، فأنقذنا بذلك حضارة العالم وتراثه مرتين واثبتنا وجودنا كأمة لا بد لها ان تبقى وان تساهم في بناء الكيان البشري وتشارك في حضارته الممتدة المتطورة ..

لكن ما موقفنا من التكتلات الاخرى في بلادنا ..

الوحدة العربية مثلاً ..

لعلنا لا نناقض أنفسنا أو نتجنى على الواقع والحقيقة حين نزعم ان الوحدة العربيه ضرورة من ضرورات كفاحنا العالمي ، ولعلنا لا نكون مغالين حينما نقرر ان الوحدة العربية هي الخطوة المؤدية للوحدة الاسلامية .

ان الأمة العربية أمة متقاربة المواقع متشابكة المصالح ، متشابهة الظروف من حيث تاريخها ووثوب الاستعمار عليها ، وحركات التحرير فيها ، عاشت طول تاريخها أمة واحدة اللهم

في فترات الضعف والوهن ، او في الحقبة الاخيرة حينا أخـــذ المستعمر يعمل فيهـــا تمزيقاً وتفريقـاً ، ويؤرث بينها الإحن والأحقاد ، ويقيم العروش ، ويؤلف الحكومات ويحاول جاهداً أن يقضي على أية نزعة خيّرة تدعو الى التقارب والاتحاد ، إيماناً منه بأن في ذلك قضاء عليه ونشوء قوة كبيرة تناوئه ، وتقلم أظافره ، وتحرق مكاسبه وسيطرته المريبة ..

والأمة العربية لا بد أن تتحد ، فوضعها الراهن بعد قيـام دولة اسرائيل يفرض عليها هذه الوحدة ، ويجعلها أمراً لا مفر منه ، وقيام بعض العقبات في طريق هذه الوحدة ليس مشينـاً غريباً ، أو مانعاً أبدياً من تحقيقها ، فصوت شعوب هذه الدول أقوى من صوت حكامها ، وشجاعتها تفوق بمراحل شجاعة أولي الأمر فيها ، ومفكرو هذه الأمة الأحرار قد أصبحوا على درجة من الوعي والإدراك تجعلنا أشد إيماناً ووثوقاً بقيام هذا الرباط بين العرب .

وشعوب العرب تدين غالبيتها المطلقة بالاسلام وهم جميعـاً يتكلمون العربية .. ولقد كانت وحدة مصر وسوريا وما صحبها من أحداث مشرفة وغير مشرفة ، وما خالطها من نوايا حسنة وأخرى سيئة ، وكانت هذه الوحدة تجربة عميقة الأثر في كياننا ومستقبلنا ، وأعتقد جازمـــاً ان الانفصال الذي حدث ليس خسارة كبرى ولا عائقاً عن انطلاق الزحف العربي الى بنـــاء الوحدة العربية ثم الوحدة الاسلامية ، فقد استقر في أعمـــاق

شعوبنا جميعاً ان الوحدة ضرورة وأنهـــا على حد تعبير رئيس الجمهورية العربية المتحدة « حتمية تاريخية » ، إنها واقع له مــا يبرره ويؤكده ويدعمه ، والواقع يفرض نفسه فرضــاً ، مهما حاول المغرضون والمنحرفون لطمس معالمه ، وتجاهل شأنه . .

ان أي تكتل عربي قائم على أساس الارادة الشعبية الحرة ، مرتكزة على العدالة الاجتماعية ، والاشتراكيــة الحقيقية نابع من ضمائرنا وعقولنا، بعيدعن ألاعيب الاستعمار ودسائسه ومؤامراته ودويــلاته ، مؤمن بجدوى قيمنا الروحية الخالدة ، ومبادئنـا الاسلامية النظيفة ، واضعاً مخططه مصلحة شعوبنا وسعادتهـــا وحقها في الحياة الحرة الشريفة ، وفي تكافؤ الفرص وفي العدالة والعمل المستمر . . مثل هذا الارتباط أو التكتل القائم على مثل تلك المفاهيم جدير بكل تأييد وتضحية .

ونحن لا نهتم بالأسماء والأشكال والشعارات ، وانمـــا الذي يهمنا فعلاً هو حقيقة ما تنطوي عليه هــذه المسميات دون لبث أو تزييف . .

إن واحداً من الحكام العرب يدعو للوحـــدة العربية ، والأعجب من ذلك أن يقف على منبر هيئة الامم المتحدة ويتباكى على الاسلام ومبادئه، وهو الذي فعل ما فعل في قضية اسرائيل، وكان طول حياته خارجاً على الصف العربي ، ولا يمثل الاسلام والمسلمين في شيء من تصرفاته الشخصية أو سياسته العامــة . . فهل نصدق رجلاً هذا شأنه ؟؟

أنصدق رجلاً يقبض مرتبه ومرتب وزرائه وجنوده من جيوب الرأسمالية الغربية ، ويتغنى بامجادها وأفضالها ؟؟

أنصدقه حين يهاجم اسرائيل ، ويدعو الى وحدة العرب ، ويتغنى بالاسلام وأمجاده ؟

ان تصديق ذلك امر في غـــاية الصعوبة لكل ذي عينين يبصر بهما ..

وفي نفس الوقت لا اصدق ايضاً ان شعبه يؤمن بخزعبلاته ، او يستجيب لشعاراته الزائفة ..

ان العالم كله يتجه الى الوان مختلفة من التكتلات : اقتصادية وسياسية وعسكرية وايديولوجية أيضاً ..

دول السوق الاوربية ..

امريكا وولاياتها المتحدة ..

الكومنولث البريطاني ..

حلف الاطلنطي ..

حلف بغداد الراحل ..

جمهوريات الاتحاد السوفيتي ..

ميثاق الدار البيضاء .. وباندونج .. وأقطاب عدم الانحياز ..

كل هذه الوان من الارتباطات لم يمنع قيامهـــا اختلاف الأيديولوجيات او اللغات او المواقع الجغرافية ..

ولا شك أن اقوى هذه الارتباطات وأبقاهــا على الزمن ، وأكثرها نفعـــاً وجدوى هي تلك التي تقوم على نوع من الأيدولوجيات الواضحة الراسخـــة ، ذات المبادىء النظيفة ، والوحدة العربية هي خطوة اولى وهامة وضرورية في هـــذا الطريق الطويل ..

انها خطوة يجب ان يؤمن بها كل داعية للوحدة الاسلاميـة على الأسس العقيدية المؤمنة .

ويتوسل بها الى تلك القمة العملاقة .. القمة التي ترنو إليها أبصارنا في شوق ولهفة وحب كبير ..

لتجتمع دول المغرب العربي على كلمة سواء ، ولتجتمع دول الشرق الاوسط على كلمة سواء ولتجتمع دول افريقيا المسلمـة ودول آسيا المسلمة على كلمة سواء .. ليلتقوا جميعاً ، وليتداخل الشرق الادنى والأوسط وآسيا وكل هذه الدول المسلمة على المثل العليا ، والمعاني الكبيرة الشريفة ، والقيم الروحية الخـالدة ، والمصلحة المشتركة .. فكل هذه الارتباطـات هي الطريق الى وحدة إسلاميـــة شاملة تتصافح فيها القاهرة والجزائر وبرقة والدار البيضاء والرباط ودمشق وبغـــداد والرياض وجاكرتا وكراتشي وغيرها .. ولنأخذ حذرنا من الأفاعي التي لا بد ان تنفث سمومها الحاقدة في جسد أمتنا المنـاضلة بشرف ، الساعية الى احقاق الحق وتثبيت كلمة الله في الأرض ..

ولنحاول دائماً أن نربط القضايا السياسيـــة والاجتماعية

والاقتصادية والفكرية بديننا الحنيف وباحتياجاتنا النابعة من واقع مجتمعنا ، وبذلك نستطيع أن نزيد حاضرنا المكافح ونهضتنا الجبارة أصالة واعماقاً وجذوراً ممتدة الى تاريخنا وتراثنا وعقيدتنا السمحة ..

ولنحاول جادين أن ندعو الى الأخذ بالنظم الاسلامية بالتدرج واليقظة في تشريعاتنا الجنائية والمدنية والدستورية ولا سينا حماستنا لفكرتنا أن شكل الحكم الاسلامي ثابت في اصوله نطور في أشكاله وتطبيقاته وتفريقاته [1] فأساسه العدالة والشورى والمساواة والسلام والمحبة .. ولننظر في القضايا الحديثة التي جدت في العصر الحديث نظرة مرنة متطورة .. واضعين في أذهاننا أنه لا ضرر ولا ضرار ، وأن الضرورات تبيح المحظورات .. وان الشارع قصد – اساساً – المصلحة العامة ، وسعادة الانسان ، وتهيئة الحياة الرخية العادلة المتكافئة له ..

***

تلك هي الخطوط العريضة لتكوين رأي عام اسلامي تناولناها تناولاً اجمالياً شاملاً في صفحات هذا الفصل ، وراعينا الإيجاز في كثير من القضايا التي تناولها غيرنا من الباحثين المسلمين المتعمقين في افاضة .. والباب لم يزل مفتوحاً بالطبع لغيرنا من

---

١ – « الفكر الاسلامي والتطور » تأليف فتحي عثمان .

الاقلام المسلمة الحرة المنصفة كي تضيف ما تشاء او تتنـــاول بالتنقيح ما أجملنا فيه القول ..

الا وإن الاهتمام بتكوين رأي عام اسلامي لهو عين الصواب، وهو بداية الطريق الى حياة مشرقة مشرقة .. حياة تكون فيها الوحدة الاسلامية حقيقـة واقعـــة .. والله يهدي الى الحق .. ولنذكر دائماً ما قرره الاستاذ فتحي عثمان في كتابـه « الفكر الاسلامي المتطور » وهو ان مفهوم الدين وتطبيقه ينتج عن تفاعل الإسلام مع الزمان والمكان ..

الفصل الرابع

أسس الاتحاد الإسلامي

إن الوحدة بين شعوب العالم الاسلامي المترامي الأطراف ، لا تقوم أساساً على داعي المنفعة وحدها ، أو على تبادل المصالح أو تكوين قوة دولية مرهوبة الجانب فحسب، بل تنبع وتستمد بقاءها ، وتربط مصيرها ، وتضع خطتها على النهج الاسلامي .. الاسلام بخطوطه العريضة ، ومبادئه الشاملة وكتابه المنزل وسنة نبيه صلوات الله عليه وسيرته ، وتجارب اصحابه رضوان الله عليهم ، وجهود الفقهاء والأعلام والمفكرين المخلصين الذين تشربوا مبادئه العالية ، كل هذا هو الأساس المطلوب الذي تُشَيَّد عليه دعائم الوحدة الاسلامية ..

انه اتحاد اسلامي ..

وهو يتمثل الاسلام عقيدة وعملاً ..

ويحيى بالاسلام في نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدولية .. وأول ما نؤمن به في المجال السياسي كما يقول الاستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه « نظام الحياة في الاسلام »[1] : « التوحيد والرسالة ، الخلافة هي دعائم ثلاث

---

١ – ص ٢٥ وما بعدها .

يقوم عليها بناء نظام الاسلام السياسي ..

١ – التوحيد :

اما التوحيد فمعناه ان الله تعالى هو الخالق لهذا العالم ومن فيه من بني آدم فهو ربهم ومالكهم ، وليس الحكم والسلطان والأمر والنهي الا له وحده ، وهو مستأثر بالطاعة والعبودية ولا يشاركه فيها أحد سواه .. هذا هو التوحيد ، وهي ينفي – كما ترى من شأنه – فكرة حاكمية البشر ، ويريد القضاء عليها قضاء مبرماً ، وسواء أكانت هذه الحاكمية لفرد من الافراد او طبقة من الطبقات او بيت من البيوتات أو أمة من الأمم ، أو لجميع من على ظهر هذه الأرض من ابناء البشر ، الحاكمية لا يستحقها الا الله وحده عز وجل ، فلا حاكم الا الله ، ولا حكم الا حكمه ، ولا قانون الا قانونه ..

٢ – الرسالة :

أما الرسالة فهي الوسيلة التي يصل بها الينا القانون الإلهي ، فالذي تلقيناه بواسطتها شيئان : أولهما كتاب الله الذي يبين فيه قانونه ، والثاني شرح لهذا الكتاب وتفسير له مستند الى ما قدمه الرسول بقوله وفعله ..

ومجموع هذين الأصلين يسمى في المصطلح الاسلامي « بالشريعة » فهذا هو الدستور الأساسي الذي ينهض عليه صرح (الأمة) الاسلامية .

الخلافة :

أما الخلافة فهي في لغة العرب تطلق على النيـــابة ، فمنزلة الانسان في هذا الكون من الوجهة الاسلامية أنه خليفة — الله أي نائب عنه في مملكته ، لا يتصرف فيهـــا إلا طبقاً لحـق الاستخلاف والتصرف الذي وهبه الله اياه.. إن الاسلام لاينوط أمر هذه الخلافـة بفرد من الأفراد أو بيت من البيوتات ، أو طبقة من الطبقات ، بل يفوض أمرها الى جميع أفراد المجتمـع الذي يؤمن بالمبادىء الأساسية من التوحيد والرسالة ، ويظهر كفاءته واستعداده للقيام بكل ما تنطوي عليه كلمة « الخلافة » وتقتضيه ، فاذا وجد في الدنيا مجتمع يتصف بهذه الصفاة ، فلا ريب أنه جدير بالخلافة ، وأن هذا هو المقـام الذي تنشأ فيه ، وتبتدىء منه فكرة الجمهورية في الاسلام ، فكل واحدمن أفراد المجتمع الاسلامي له نصيب من الخلافة ، وحق في التمتع بها ... إن نظرية الغرب السياسية تقول **بحاكمية** الجمهور والاسلام يقول **بخلافة** الجمهور ... إن حقوق الحكم والأمر في الجمهورية العربية يستبد بها الجمهور وهم الذين يملكون ناصيتها ، فيسنون وينفذون في الأرض ما يشاؤون من القوانين والشرائع ، وان قصارى ما ما تهدف اليه حكوماتهم انما هو إرضاء عامة سكان (الدولة) وجلب تأييدهم ، وقضـاء مشيئتهم ، والاسلام بخـلاف ذلك ، ليس الحـكم والأمر فيه إلا لله وحده ، فهو الذي يستأثر بحق وضع القانون والشريعة لعباده من غير مشارك ولا منازع ، أما الجمهور فليست منزلتهم في الاسلام إلا كمنزلة الخلفـــاء الذين

يضطرون بطبيعة منزلتهم أن يقتفوا آثار الشريعة الالهية التي جاء بها الرسول من عند ربهم ، ولا يحيدوا عنها قيد شعرة .. »

***

ان العبودية لله انتصار لقضية الانسان ..

أجل .. انتصار لقضية الانسان ، لأنها تنفي بكل قوة وثقة الآلة الصغيرة أعني هؤلاء البشر الذين يفرضون جبروتهم وسطوتهم ويحكمون الناس بالقهر والعسف والاذلال ..

وعندما يفهم الانسان ان عبادته لانسان مثله شرك بالله ..

وعندما يدرك الانسان ان الله أقوى من كل جبروت في الأرض..

وعندما يؤمن الانسان أنه خليفة الله ..

وعندما يرسخ في ذهنه ان كلمة الله هي العليا ، وأن أية كلمة أخرى تخالف قانون الله ، وتنحرف عن كلمته هي ضلال ..

عندما يدرك الانسان كل هذا يصبح إنساناً حقاً ..

ويصير الانسان حراً ...

حراً في الحدود التي رسمها الله ، لا في القيود التي صنعها بشر مثله ..

حراً في حدود الفطرة السوية التي فطره الله عليها ، لا في حدود النزوات النفسية الضيقة ، او المطامع البشرية الملطخة

بالمنافع والأهواء الصغيرة .

حراً في ان يقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم.. تلك الحرية التي تجعل امرأة تعارض عمراً رضي الله عنـــه في مسجد غاص بعديد من البشر ، فينطلق صوته في قوة وإيمان « اصابت امرأة وأخطأ عمر !! ».

في ظل هذا الاعتقـــاد يمضي الانسان متحرراً من الخوف والمذلة والخضوع لغير الله ..

وعلى ضوء هذه المفاهيم يستطيع « الحبشي » ان يرفع رأسه الى المستوى الذي يرفع « القرشيّ » فيـــه رأسه ، ويستطيع المسلمون ان يسعى بذمتهم أدناهم ..

إني لا أنسى ما حييت ذلك الأعرابي الذي وفد على رسول الله وهو يرتعد .. كانت تحدثه نفسه انه سيكون في محضر محمد صلى الله عليه وسلم ، محمد الذي حطم الشرك ، وحطم كثيراً من المقاييس والتقاليد العتيقة ، محمد الذي حارب دين الآباء الفـــاسد ، وأتى بدين جديد ، وزلزل أسس الحياة البالية المتعجرفة . أجل دخل يرتعد ، فرمقه النبي في عطف ، وقال « هوّن عليك.. فأنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .. »

آية معان رفيعة يزرعها محمد في قلب ذلك الأعرابي البسيط !! وأي بنـــاء سامق للمثل والمبادىء يبنيـــه محمد في نفس ذلك الانسان !!

وهكذا استطاع محمد ان يطلق الانسان من قيود العبودية لعشرات الآلهة في الأرض .. العبودية للحاكم .. للرئيس المباشر .. للغني صاحب المال والضياع والمتاع .. العبودية لقادة الفكر وسدنة الدين الضالين ، العبودية للمواضعات الاجتماعية المتعفنة .. العبودية للأهواء النفسية والنزوات الفردية الصغيرة .. استطاع محمد ان يحرر الانسان من تلك العبوديات الضارة ، وجعله عبداً لله وحده ..

وهكذا تنبع حرية الانسان من عبوديته لخالق الأكوان وواهب الحياة ، ومن بيده مصير كل شيء ..

وحينما جاء الاسلام ، لم يطرحه رسول الله كقضية لا جدال فيها على الناس ان يعتنقوها وإلا خسفت بهم الأرض أو أنقضت عليهم صاعقة من السماء ، أو اكتسحهم طوفان مدمر ، وإنما بسط الأمر كقضية واضحة مدعمة بالبراهين العقلية والأدلة القوية ، ودعا الناس الى النظر فيها ، والتدبر في شأن الكون ونظامه وخلقه وتدبيره .. وهكذا أخذ الاسلام بيدهم الى أخطر قضية انسانية هي ان يفكروا .. يفكروا في نزاهة وحرية وتمعن .. فعل الاسلام ذلك ، لكي ترسخ مبادىء العقيدة على أسس قوية من الاقناع ، ولكي ينشئهم على معنى الحرية الفكرية ويربط أذهانهم بما حولهم في الكون من مظاهر عدة ، وبما في نفوسهم من انفعالات وانعكاسات وأصداء .. يقول محمد أسد [1] .. ان

١ – منهاج الاسلام في الحكم ص ١٤٩

الحياة الاسلامية الحقيقية تتطلب اجتهاداً مستمراً في كافة المسائل التي لم تحددها الشريعة بنصوص ظاهرة في القرآن أو في السنة ، وحرية الاجتهاد تلك تصبح واجباً دينياً واجتماعياً ، اذا دعت الحاجة الى بحث عام لأمر من الأمور الشرعية ، وهكذا يعني ان على قادة الفكر في المجتمع الاسلامي ان يتقدموا بما قد يصلون اليه من نظريات وافكار جديدة يمكن ان تؤدي بالمجتمع الى النهضة والتقدم ، وأن يبثوا هذه الافكار ويدعوا لها بين الجماهير ، ولهذا فان حق التعبير الحر عن الآراء ، سواء بالكتابة أو الخطابة من الحقوق الأساسية المسلم بها للمواطنين في الدولة الاسلامية ..

ولكن يجب ان يكون مفهوماً ان حرية الرأي (هذه الحرية التي تشمل حرية الصحافة بطبيعة الحال) لا يجب ان تستخدم للتحريض على الاستخفاف بالشريعة أو نبذها ، أو لإثارة الشعب ضد الحكومة القائمة ، او الدعوة الى الرذيلة او الاستهتار بالآداب العامة ! »

وهكذا انبثق عن توحيد الله سحق لكافة الخرافات الزائفة وهدم للأصنام البشرية التي رضخ لها ضعاف النفوس ، وحنى جباهم لها صغار الافهام .. وما أروع أقبال حين يقول :

بلغت نهاية كل أرض خيلنا ... وكأن أبحرها رمال البيدِ
في محفل الأكوان كان هلالنا ... بالنصر أوضح من هلال العيدِ
في كل موقعة رفعنا راية ... للمجد تعلن آية التوحيدِ
أمم البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في آسار عبيدِ

يلغت بنا الأجيـال حرياتها من بعد أصفاد وذلك قيود

ان التوحيد بمعنـــاه العميق الدقيق توازن نفسي يضفي على الذات الانسانية سلاماً وأمناً واستقراراً ..

وهو في نفس الوقت توازن اجتماعي يبذر بين الافراد بذور المحبة والمساواة ، ويقضي على مفاسد الاستغلال والاستعبـاد والصراع الطبقي ، وتأليه الأفراد ...

وهو ايضاً – في المجـال السياسي – حرية كاملة ، ومصدر عزة وإباء ، وتقليم لأظافر المتجبرين والطغاة .

وهو في المجال التشريعي ، تسليم مطلق للخالق جل وعلا ، بأنه رب الكون وفاطره على النسق المثالي ، وهو العلم ، بمـا يضره وما ينفعه.، وهو الذي وضع له القانون او التشريع الذي الذي يضمن له السعادة والرضى والنفع ..

* * *

ويتفرغ عن هذا الايمـان الكلي بالنظرة الاسلامية قضية أخرى يقوم على أساسها تسيير دفة الامور في الأمة الاسلامية ، ألا وهي قضية الشورى .. « وشاورهم في الأمـر » « وأمرهم شورى بينهم » ، « .. ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » . والشورى مبدأ مقرر في الاسلام ، بل ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ربط مبدأ الشورى بالأغلبية حين قال « اتبعوا السواد الأعظم » [1] ولا شك أن ارتباط الشورى بحكم غالبية الجماهير

(١) رواه ابن ماجه عن عبدالله بن عمر .

في مجتمع إسلامي مستنير يحكـم قيم الاسلام ومبادئه في شتى المجـالات الفردية والجماعية ، ضمان لاستقامة الأمور والسير على نهج سوي منتظم ..

وبديهي أنه لا مجال للشورى وتبـادل الرأي بالنسبة لنص واضح صريح أتى به القرآن مثلاً ، أو قـاعدة أساسية ترتبط بأصول الدين وحقائقه الأزلية ، وما عدا ذلك فإن الشورى تمتد في رحابة وتتناول كل ما يجد على المجتمع الاسلامي من أحداث ، وتتناول التطبيقات المتغيرة بتغيير الأزمنة والأماكن ، وتتناول مئات المعضلات التي لا يصح بداهة ان ينفرد بالرأي فيهـا رجل واحد ، وما كان الدين ليترك أمور البشر تسيرها أهواء قلة ، او يبت في أمرهـا فرد بعينه ، مهما أوتي من الاخلاص والصدق والشجاعة ، فمصالح الجماهير كثيرة متشابكة ، والناس لم يخلقهم الله على نسق واحد ، ولم يجعلهم يتبعون نهجاً واحداً في التفكير أو تفسير الأحداث واستقراء دلالاتهـا ، ومن هنا كان من الضروري أن ترتفع الأصوات وتتبادل الآراء ، فيتيح الفرصـة بذلك للون من التفاعل الفكري ، أو سمه اذا شئت التكامـل الفردي فينتج عن ذلك اتضاح تام لما يعرض من الأمور ، وتحلل كل مشكلة الى عناصرها وبعد ذلك البيان والجلاء تحصى الآراء ، ويكون الحكم للأغلبية ، تلك الاغلبية التي لم يحددها الشارع بشقة معينة بل جعلها مطلقة .

ويحضرني في هذا المقام حادثة جرت للرسول ، كانت ذات دلالة وعمق كبيرين بالنسبة لقضية الشورى ، كان ذلك في معركة أحد ، اذ « اجتمع المسلمون حول رسول الله يتدبرون أمرهم : أيخرجون لمقاتلة العدو في العراء أم يستدرجونه الى أزقة المدينة ، حتى اذا دخلها قاتله الرجـــال في الطرق ، وقاتلته النساء فوق أسطح البيوت ؟؟ »

وكان رسول الله يميل الى الرأي الاخير ، وأيده فيه رجال من أولي النظر والروية وقال عبد الله بن أبيّ : هذا هو الرأي ، لكن الرجال الذين لم يشهدوا (معركة) بدر تحمسوا للخروج ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله فقد ساقه الينا وقرّب المسير ، وظاهرهم الشباب الطامح في الاستشهاد ، وبدا أن كثرة المسلمين تميل الى البروز لملاقاة العدو فدخل الرسول بيته وخرج منه لابساً عدته مهيئاً للقتال .

وشعر القوم انهم استكرهوا الرسول على رأيهم ، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيـــه ، بيد أن النبي وجد غضاضة من الاضطراب بين شتى الآراء ، فقال : ما ينبغي لنبي ليس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وقال : قـد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم الا الخروج ، بتقوى الله ، والصبر عنـد البأس وانظروا ما أمركم به .. فافعلوا »[1]

---

١ — فقه السيرة (محمد الغزالي) ص ١٩٢

واحترم الرسول مشيئة الجماهير ، بينما رجع عبد الله بن أبيّ من منتصف الطريق منسحباً بثلث الجنـود المحاربين ، وضرب الرسول أرفع المثل في ثقته بمبـدأ الشورى ، وتطبيقه له ، ولم يكترث بمن خرجوا عليه ، أو تشبثوا بآراء الاقليـة التي تأبى الا أن تفرض سلطانها ..

ان حاكم المسلمين يجب ان يملك ناصية الحكم على أساس نظرية الشورى والاستفتاء ، ومجلس الشورى يجب ان يكون منتخباً من الشعب ممثلاً لآرائه بنسائه ورجاله ، معبراً عن إرادة الأمة، متصفاً بصفات الأمانـــة والخلق والغيرة على الحق ، والحملة على الظلم .. وأمور الحياة من سلم وحرب ، وسن قوانين ، وتنظيم مالي أو تكافل اجتماعي ، كلها مرتبطة بالغاية الكبرى التي تقوم من اجلها الدولةالاسلامية ، وهي احقاق الحق ، ومحاربةالمظالم، مع الارتباط بالأصول الاسلامية قلباً وقالباً .. ولم نر حتى الآن في التاريخ القديم أو الحديث نظامـــاً يكفل السلام والأمن والسعادة للبشر مثل نظام الشورى التي أقر الاسلام دعائمها منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان .. ان نظامـاً يقوم اساساً على كلمة الله ، ويدعو الى البر والخير ، وينهي عن المنكر والشر ،تؤازره أخوة أصيلة لا تفرق بين لون أو جنس ، ويعتد بالشورى وحرية الرأي،لهو نظام جدير بالبقاء والخلود، قمين بكل احترام وتقدير.

* * *

والاساس الثالث للحكم الاسلامي هو الاخاء ...

« انما المؤمنون اخوة » [1]

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » [2]

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربه فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » [3]

« . . هذه هي مقاصد الفطرة الاولى ، ورمز الاسلام الحقيقي : أن تملك العالم بالأخوة ، وتحكمه بالمحبة . . » [4]

وبذلك تصبح الأخوة طاقة هائلة تمد هذا المجتمع الاسلامي بالوحدة والتفاهم وترفع دعائمه على المحبة والإيثار والتعاون ، وتخلق نمطاً فريداً من التكافل الاجتماعي ، وتسد الطريق امام أفاعي الجشع والتسابق المهووس في حيازة المتاع والسلطة والسطوة ، وتقضي قضاء مبرماً على منطق الغابة . . ذلك المنطق الجائر الذي يخلق من الآدميين حيوانات متصارعة ، تنظر الى العالم من خلال معدتها ومن خلال أهوائها ومطامعها الذاتية ، ومن ثم برزت الى الوجود مأساة الاستعمار الغربي الحديث . .

تلك الفلسفة المريضة التي تحكّم المنفعة في كل أمورها ، وتريد

---

١ – سورة الحجرات .

٢ – رواه البخاري ومسلم .

٣ – رواه البخاري ومسلم .

٤ – اقبال الشاعر الثائر (للمؤلف) ص ٦٧ ، ٦٨ .

أن يكون الرخاء المادي والسلطات الزمنية وقفاً على شعوبها.. استغفر الله .. بل وقفاً على طائفة متحكمة من شعوبها .. لطالما تشدقت فرنسا في ثورتها الكبرى بشعارات الاخاء ، والى جانب تلك الشعارات كانت تندلع المشاحنات في فرنسا نفسها، وتفيض برك الدماء ، وكانت هذه الشعارات عذاباً وافتراءات وسجوناً ومظالم في الجزائر وافريقيا والهند الصينية .. ومن ثم تحولت صيحات الاخاء الفرنسي الى اكذوبة كبرى تثير السخرية والاشمئزاز .

ان أخوتنا الاسلامية ليست شعاراً زائفاً..

ولكنها حقيقة واقعة ، وتجربة تاريخية ، وأصل بارز من أصول ديننا ...

انها سمة «أيديولوجية» وما كان لها أن تكون صيحة نفعية..

ومن ثم لن تكون الاخوة الاسلامية أخوة بمعناها الصحيح اذا قامت على اساس قبلي او جنسي او اقليمي ، ولن تكون اخوة صادقة اذا صغّرت الاسود لكونه أسود ، او رفعت من شأن الابيض لكونه ابيض ، وانما الاسلام - كعقيدة وشريعة- هو لحمة هذه الأخوة، وهو سياجها ، وهو الروح التي تهيمن عليها وتوجهها ، وبذلك لا يجد المسلمون غضاضة في ان يحكمهم رجل كفء ولو كان عبداً حبشياً ، والرسول يقول : « اسمعوا واطيعوا

وان أمرّ عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »[1] .

وتبلغ هذه الاخوة قمتها في الروعة والعظمة حينما نقرأ قوله ايضاً : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » ، فالايمان لا يكمل بالإخوة السطحية ، وإنما يصبح كائناً فعالاً عندما يدعمها الحب الكبير الذي يحترم النفس الانسانية وأشواقها ورغباتها ، ويتمنى لها ما يتمناه لصاحبه من خير وفلاح وسعادة ، وعندما ندرك حقيقة هذه الاخوة وأبعادها ومراميها لا يساورنا أدنى شك في إيجابية هذا السلاح المعنوي وخطورته في الحفاظ على مدنية الانسان ، وإقرار الامن والسلام في ربوع الارض .. وهذه الاخوة يتبعها بالضرورة أساس آخر من الاسس القوية ، التي يرفع عليها بنـاء الوحدة الاسلامية ألا وهو المساواة .. والمساواة في شمولها تكافؤ للفرص بين أبناء الامة ، واعطاء كل ذي حق حقه ، لا يقف دون ذلك حائل من ثراء أو حسب او قرابة او مكانة اجتماعية ، والمساواة عدالة اجتماعية تفتح الطريق أمام كل عامل او مجتهد كي يبلغ مكانته اللائقة به ، ويصل الى الموضع الذي تؤهله كفـاءته واستعداده ، والمساواة قضاء على « البيروقراطية » التي لا تستند على أية قيمة دينية سليمة ، والمساواة درء للصراعات الطبقية ، والاحقاد الاجتماعية والاساليب الملتوية الممجوجة من نفاق ورياء وألاعيب قذرة ، والمساواة في الحقوق

---

١ ـ رواه البخاري عن انس .

يتبعها بالضرورة مساواة في الواجبات ، كل حسب ما يؤهله له استعداده وطاقته البدنية والفكرية.. وما أظن المساواة والعدالة إلا وجهين لعملة واحدة هي الاخوة الاسلامية المصفاة ...

* * *

ثم يأتي دور الاقتصاد كعامل أساسي خطير في بناء الاتحاد الاسلامي واستشرافه راتب الكمال والنجاح ...

وقد كثر اللغط حول المفاهيم الاشتراكية وصلتها بالاسلام..

والامر اذا ما بحثناه في تصقي وافاضة يحتاج لمساحة أوسع يقصر عنها هذا الكتاب الصغير ، وتقصر عنها همة مؤلفه ، اذ أنها ميدان يختص به علماء الاقتصاد الحديث مشتركين مع النابهين من علماء الفقه الاسلامي ، غير أن الامر في اجمال وبساطة لا يشوبه التباس ، او يعتوره غموض كما يتصور الواهمون من ذوي الميول المنحرفة ، اولئك الذين يدفعهم حرصهم على سلطانهم ومكاسبهم ورفاهيتهم الى ان تزيغ قلوبهم عن الحق وتميل مع الهوى . لم يقل الاسلام قط ان الحرية مطلقة لبشر أيا كان مركزه ومكانته ان يثرى ثراء فاحشاً مستغلاً في ذلك عرق الكادحين ، وشقاء العامة ولم يقل « لا تنم متنخماً منعّماً هادىء البال ، وجارك يتلوى من الجوع والحرمان ، ولم يقر وجود الغنى الفاحش الى جوار الفقر المدقع « ان وجود الفقر في مجتمع ، الى جانب الثراء قمين بأن يقضي قضاء مبرماً على روابط الاخوة ، وعواطف

التراحم بين الناس ، هذه الاخوة التي يتوقف قيام الاسلام او سقوطه على وجودها . يقول الرسول : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » وبناء على هذا فإن على الدولة الاسلامية ان تحقق العدالة الاقتصادية بين افراد المجتمع ، - وان تتيح لكل مواطن - رجلا كان او امرأة او طفلاً ان يجد ما يكفيه من المأكل والملبس ، وان يجد العلاج اذا مرض ، وان يجد مأوى لائقاً » [1] . ولن يقر الاسلام استئثار فئة من الرأسماليين بثورة الامة ، فيتحكموا في مصائرها ، ويفرضوا ما يشاؤون من افكار وفلسفات واخلاقيات ويسوقوا الناس عبيداً لرغباتهم ومطامعهم ، والاسلام لا يقر إلا الكسب المشروع ، الكسب الذي لا ينجم عنه استغلال لعامل من العمال واهدار حقه، او انقاص أجره الكسب الذي لا يأتي عن أسواق سوداء تستغل حاجة الجماهير وفقرها ، الكسب الذي لا ينجم عن التجارات المحرمة .. ولا يكتفي الاسلام بشروعية الكسب ، بل يلزم الرجل « الا ينفق ما اكتسبه من الاموال بالطرق المشروعة الا في الطرق المشروعة ، فقد وضع هذا الغرض حدوداً للإنفاق بحيث يستطيع المرء ان يعيش عيشة طيبة طاهرة إلا انه لا يسعه ان يبذل امواله في طرق ابواب المجون والخلاعة ، ولا ان يصرف في إظهار بذخه وترفه ، حتى يعلو في نفسه فوق بني جلدته ، وينظر اليه الناس من حوله نظرهم الى الجبابرة

---

(١) منهاج الاسلام في الحكم (محمد أسد) ص ١٥٨ - ١٥٩ .

المستكبرين[1] . ان تكديس المال في يد طائفة قليلة ، وامتلاك الارض والعقار لحفنة من الاثرياء ، وسيطرة الانانية على هؤلاء، هدم لاسس المجتمع وتحطيم لكيانه ، وافساد ايما افساد لحياته السياسية والاجتماعية الفكرية ..

وما كان هذا القول تعسفاً في التفسير لمبادىء الاسلام ، أو جرياً وراء نظريات اقتصادية حديثة يحاول ان يتمسح بها الاسلام ، ولا كان تابعاً من احقاد طبقية ثائرة ، وانما المال . مال الله « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه .. الآية » ، ومن المقررات في الاسلام ان تكفل الدولة طعاماً لكل جائع ، ومأوى لكل ضائع ، وكساء لكل عار، وعلاجاً لكل مريض، وتعليماً لكل جاهل ، وعملاً لكل عاطل ، ورزقاً لكل مريض أو مسن ، وأن تجعل مصلحة المجموع فوق مصلحة الأفراد مع عدم الاجحاف بهم كأفراد ، ومن ثم يرى الاستاذ محمد أسد .. ان الحكومة التي تحكم بأسم الله ورسوله وتلتزم أوامر الشريعة . لها الحق في ان تضع يدها على كل ما يملكه الشعب — متاعه وحياة افراده — في أي وقت تتطلب فيه مصلحة الأمة وسلامة الدولة مثل هذا الاجراء ..وان تفرض ضرائب اضافية الى أي حد تراه ضرورياً لصالح الشعب ، وان تفرض — كلما دعت الحاجة الى ذلك — قيوداً على الملكية الشخصية كبعض العقارات او وسائل الانتاج

---

(١) نظام الحياة في الاسلام ص ٦٨ (للمودودي)

او مصادر الثروات الطبيعية ، بقصد اخضاعها لأشراف الدولة واتخاذها كمنافع عامة .. الخ .

ولن يقضي مثل هذا النظام على التنافس الذي يخلف وراءه الاجادة والرغد ، وانما سوف يقضي قطعاً على كل وسائل الاحتكار والتنافس المشين الملوث، وسوف يدفن الى الأبد تدخل رأس المال في نظام الحكم ، وفرض السيطرات الزائفة على الشعوب ، وتوجيه سياستها وجهة تخدم الاستعمار والانتهازية ، إن تقليم أظفار الرأسماليين الذين يحاربون الحركات الوطنية ، ويسقطون الحكام الاحرار في بلادهم، ويساندون الخونة والعملاء، ان تقليم اظفار هؤلاء والقضاء على سلطانهم الجائر ، واستغلالهم الشائن لعمال المصانع وفلاحي الأرض وحصولهم على المال من المصادر المحرمة ، وتبذيره في سبيل الشيطان ، لهو واجب وطني وديني .

ان الأمة الاسلامية يجب ان تقيم اقتصادها على اساس نظيف يهدف الى تطوير المشروعات الاقتصادية والمالية، وتحقيق السعادة والرفاهية لأبناء الأمة ، وإيجاد نوع من التكافل الاجتماعي يحفظ كرامة الانسان ، يعطيه الفرصة كي يعبر عن آماله وآرائه ، ويبرز طاقاته الفكرية والعلمية الخلاقة ، مستغلاً اياها في خدمة أمته ..

هذه الروح الاشتراكية في الاسلام هي التي يجب أن تخطط لمستقبلنا الاقتصادي وتحميه من الأدعياء والعملاء والطامعين ،

ويوم ترتبط هذه الاشتراكية بالاسلام فسوف يمدها بقوتـــه ، ويعضدها بمبادئه لأنها منه واليه .

وأساس آخر يجب ان يقوم عليه اتحادنا الاسلامي . وأعني به النهضة العلمية لقد كان تحصيل العلم ـ وما زال ـ بشتى فروعه أمراً مقرراً وضرورة بديهية ، دعا اليه القرآن واحـــاديث الرسول ، ولم يحدث قط ان ارتكب العلم الحقيقي جريمة الوقوف من الدين موقف العداء والتحدي ، لقـــد فرضت الكنيسة في أوربا بعض نظريات خاطئة عن الكون والطبيعة وغيرهـــا ، وحاولت ان تلزم بها الجماهير ، وترغم العلماء على قبولها دون مناقشة ، وما أن كشف العلم عن حقيقة هذه النظريات الزائفة، وأماط اللثام عن فسادها وبطلانها حـــتى ثارت الكنيسة ، فاضطهدت العلماء وشردتهم وقتلتهم ، وحكمت عليهم بالكفر والهرطقة ، ومن هنا جاء العداء المزعوم بين الدين والعلم .

ليس في ديننا عداء للعلم أو النتائج التي توصل اليها العلماء عن طريق التجربة العملية ، والدراسة المنصفة ، والبراهين المقنعة ، وما كان القرآن في يوم من الأيام كتاب كيمياء أو جـــبر أو هندسة أو جغرافيا مفصلة حتى يقدم المعادلات الجبرية والحسابية أو يتحدث عن التفاعلات الكيماوية .. ان القرآن كتاب شامل لحقائق الحياة العامة ، وواضـــع للأسس الفكرية والتشريعيـة والدستورية والاقتصادية والروحية في حياتنا .

فالقرآن مثلاً لم يحدد طريقة مفصلة لاستخراج البترول من

أعماق الأرض ولم يحدد طريقة للكشف عن القوى الديناميكية أو الكهربائية ، وانما قال للانسان ، أنظر في الكون نظرة فاحصة دقيقة ، وتجول في أنحائه المترامية ، ولا تجعل للكسل العقلي أو الجسدي سبيلاً إليك ، بل كافح واعمل وادرس ، وسخر كل ما في الكون لسعادتك وسعادة الآخرين أيها الانسان. . وحث المسلمين أيضاً على طلب العلم في الداخل والخارج ، في الغرب والشرق ، وجعل للعلماء مكانة عالية في الدنيا والآخرة ، وأثنى ثناء عاطراً على اليد الخشنة التي تناضل وتعمل ، أو تشق الأرض ، أو تحفر المناجم ، او تشيد بناء ، ونعى على الذين يفرون الى الصوامع يتعبدون منقطعين عن العالم ، ورماهم بالخور والكسل والانحراف عن مسلك الدين الصحيح .

ونهضتنا العلمية يجب ان تقوم على اساس نظيف ، وان توضع لها الامكانيات المادية الكافية حتى تنموا وتزدهر . . وليبق العلم واضعاً يده في يد الدين ، فمنه يستمد الثقة والصبر والمثابرة وثواب الله ، ومنه يستمد ايمانه بالانسان وبأن يحي حياة لا تؤرقها الحروب ، او يستبد بها طغيان .

* * *

بقيت كلمة تتعلق بغير المسلمين في الامة الاسلامية . . ولقد قال الاستاذ المودودي وهو يخطط لمشروع دستور اسلامي في الفصل الثامن تحت عنوان حقوق اهل الذمة ما يلي .

المادة ١٤ : ولكل من لا يتفق مع الدولة في مبادىء الحاكمية والخلافة وغاياتها اتفاقاً كلياً ، يمكنه ان يعيش ذمياً في حدود الدولة اذا اقر بولائه للدولة ، وإذعانه لقانون البلاد .

المادة ١٥ : تخول الدولة أهل الذمة علاوة على الحقوق الانسانية الأساسية والحقوق العامة ، سائر : الحقوق التي اقرتها الشريعة لهم .

وليس لأحد ان يسلبهم إياها او ينقصهم شيئاً منها، غير انه للدولة ان تزيدهم حقوقاً اخرى غيرها اذا رأت فيهامصلحة بشرط الا تعارض هذه الزيادة مبدأ من مبادىء الاسلام

المادة ١٦ : كل فردي اذا حصل على حقوق اهل الذمة اومنحها بموجب الدستور لا يخرج من الذمة الا اذا اعلن خروجه منها بنفسه ، او نفى ما اقر به من الولاء للدولةبارتكاب عمل من اعمال البغي والعدوان الصريح.

المادة ١٧ :

أ - تراعى المساواة بين المسلمين واهل الذمة في الحقوق العامة مراعاة تامة .

ب - وكذلك تكون المساواة تامة بين المسلم والذمي في القوانين الجنائية والمدنية.

ج – لأهل الذمة ان يؤسسوا معابدهم في امصارهم وكذلك لهم ان يؤدوا شعائرهم الدينية علانية .

د – واهل الذمة من حقهم ان يلقنوا ابناءهم ومن كان على دينهم تعاليم دينهم ، وكذلك يسمح لهم بأن يدعوا غير المسلمين الى دينهم ويجوز لهم ان يبينوا محاسن اديانهم او ينتقدوا الاسلام في حدود القانون [1] .

هـ – واهل الذمة يقضى في جميع شؤونهم الشخصية والذاتية حسب قانون احوالهم الشخصيـة ، ولا يطبق عليهم القانون الاسلامي ، الا اذا طالبوا به بأنفسهم ، اما اذا كان النزاع بين المسلم والذمي فلا يقضي فيه الا حسب قانون البلاد ... الخ

وللذميين ان يمارسوا ثقافاتهم ، ويتقدموا بشكاواهم الى الحكومة ، ولهم الحق في ابداء الآراء والانتقادات التي تعن لهم .

وعلى الأمة الاسلاميـة ان تكفل لهم الأمن والحرية ، وان تعين محتاجهم ، وتأوي عاجزهم ، وترفق بمسنهم .

فاذا ما استمعت الأقليات الدينية بمعتقداتها وحرياتها وثقافاتها ونالت الرعاية الاقتصادية والاجتماعية ، فلن يكون هناك فارق يذكر بينهم وبين طوائف الشعب . . فالكل سواء امام القانون . .

---

١ – لا ذم ولا افتراء ولا طعن على الاسلام .

ولا شك ان تجربة الحكم الاسلامي في القديم والحديث قد اكدت هذه العدالة المطلقة التي ينعم بها المسلم وغير المسلم في ظل الاسلام الحنيف ، حتى انه لو فرض واعتدت دولة غير مسلمة على اقلية مسلمة فيها وقست عليهم ايما قسوة ، فلا يحق للدول الاسلامية ان تفكر في معاقبة رعايا هذه الدولة لديها، او التعرض لارزاقهم وافكارهم وحرياتهم التي كفلها الاسلام لهم ، فمثل هذه الاحداث لن تحرف الاسلام عن فطرته السمحاء ، ولا تحيد به عن قوانينه النقية ومبادئه القوية .

فكلنا أخوة في ظل الحب والسلام والعدالة والمساواة والحرية، وقد تكون فكرتنا ونظرتنا الى اخواننا من غير المسلمين أوضح لو ادركوا انه لا يتم إيماننا الا اذا آمنا برسالة موسى وعيسى والنبيين جميعاً ..

تلك هي نظرتنا السمحاء ..

والآن .. لنتساءل .. ماذا لو كان في المعسكر الشيوعي رجل يخالف في معتقده المذهب الشيوعي ؟؟ ان جزاءه السجن او القتل او العزل .

من هنا تظهر تلك الحرية الحقيقية، وتتبدى نظرة الاسلام .. النظرة الانسانية التي تشمل كل من يستظل بلوائها من مختلف الملل والنحل والديانات والألوان والأجناس ..

الفصل الخامس

صورة الاتحاد الإسلامي

واضح كل الوضوح ان الأتحاد الاسلامي اتحـــاد مبادىء وايديولوجيات قبل ان يكون اتحاد منفعة وأوضاع استراتيجية، وان كان كل ذلك يأتي تبعاً لما سيقوم بين المسلمين من ارتباط ومن اعتناق للفكرة الاسلامية وأصولها، والشكليات –رغم ضرورتها– لا تأخذ في الاسلام المكانة الاولى، وليس لها الاعتبار الأوحد، انه جوهر قبل ان يكون مظهراً، وروح قبل ان يكون نصاً جامداً، وضمير قبل ان يكون قانوناً مجرداً.

ومن ثم فان اي اتحاد يقوم بين الدول الاسلامية يحرص اول ما يحرص على روح الاسلام وسيطرتها على افعال العباد واقوالهم، هذه الروح يجب ان تبسط سلطانهـا على ادوات الحكم سواء في السلطة التشريعية او السلطة التنفيذيه، في المعامل حيث الكشف والاختراعات، وفي ميادين الحرب حيث الصراع بين قوى الخير وقوى الشر، في المجالات الفنية والفكرية حيث تتلاقى الاقلام او تتنافر، في العلاقات الدولية على الصعيد العالمي او المحلي حيث تختلف وجهات النظر، وتطرح قضايا الشعوب، ومشاكل الدول.

ولن تكمل صورة الاتحاد الاسلامي، وتأخذ وضعها اللائق

بها وتؤدي دورها الايجابي الفعال الا اذا راعت الأسس التي أشرنا اليها في الصفحات السابقة ، واعني بها التوحيد الذي لا تشوبه شائبة من شرك او زيغ ، والحرية السمحاء في الاطار النظيف المبدع الخلاق ، والأخوة الشاملة التي تجعل من البشر سواسية كأسنان المشط ، والمساواة الصادقة التي تفتح الطريق امام كل ذي موهبة كي يجد ويتقدم ويأخذ مكانه اللائق به ، والحب الكبير الذي ينشر أريجه في الآفاق ، ويحقق معنى الترابط والثقة والألفة بين خلق الله ، والشورى الكاملة التي تفتح صدرها لشتى الآراء ، ولا تعطي الفرصة — لانسان كائناً من كان — ان يستبد برأيه او يتجاهل رغبات الآخرين .. وهكذا ..

ان حركة الاتحاد الاسلامي تستلزم اول ما تستلزم انقلاباً نفسياً هائلاً .. او ثورة داخلية في اعماق الفرد ، ذلك اللبنة الاولى في البناء الكبير ، نفس المسلم هي في الحقيقة نقطة الاشعاع الاولى ، نقطة الانطلاق الجبار نحو الوحدة.. ونقطة اللقاء ايضاً.

واي تجاهل لهذه الحقيقة او غض من شأنها يؤدي الى البوار والخسران المبين ، ستكون كمن يبني على اساس واه ضعيف ، والنتيجة المحتمة ، الانهيار التام ، وفقدان الأمل في اي نجاح مشرّف .

ومتى وضحت الأسس التي ينهض عليها اتحاد الأمم الاسلامية ، واستقرت في اذهاننا ، واصبحت قوية راسخة لا تتزعزع ، وعملنا على نشرها وسيطرتها على الرأي العام ، متى حدث ذلك ،

فإن اية صورة للوحدة الاسلامية ، منبثقة عن هذا الفهم مؤمنه به ستكون ولا شك صورة وافية بالغرض ، مؤدية بنا الى احسن النتائج وافضلها ، فالمسألة مسألة فكرة او معنى نلتف حـوله ونستمدمنه زادنا لا مسألة صورة معينة نبرزها الى الوجود لنقنع بها هذا او ذاك ..

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ..

ويأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر

أجل هذه هي الغاية الكبرى التي ترمقهـا أبصارنا ، وتتمثلها بصائرنا ..

* * *

يقول الاستاذ ابو زهرة « لا يصح أن ندعو الى دولة واحدة، حتى لا ينزعج الملوك والرؤساء، ويخشى كل من هؤلاء على حوزته، ويخاف على صولتـه ويخشى الملوك ان تخلع التيجان من فوق رؤوسهم، فيتحدون لمحاربة الفكرة ووأدها في مهدها ، وتذهب العداوة بها شعاعاً .. » [1]

وقد يكون الاستاذ أبو زهرة محقاً في عدم اقتناعـه بصورة

(١) الوحدة الاسلامية ص ٦٥

الدولة الواحدة ذات النظام السياسي الموحد، لكن الذي يعنينا في هذا المجال ونريد أن نؤكده ، هو أننا يجب الا نضع أهمية كبرى لخوف الحكام ومناوئتهم للاتحاد الاسلامي ، ونحن لا نفكر في هؤلاء الحكام الا من خلال المقاييس الاسلامية التي وضعها الله ودعا اليها نبيه ، لانريد ان نجاملهم أو نربت على ظهورهم مطمئنين حتى لا ينزعجوا من أجل مراكزهم . نحن نعلم ان اي لون من الوان الاتحاد يخيف هؤلاء ويرعبهم ، لأن هذا الاتحاد او ذاك قد يحد من سلطانهم ، او يحرمهم من ممارسة « حقوقهم » غير المشروعة في الكسب المادي والامجاد الشخصية ، وبعضهم يجاهر بعدائه للدول الشقيقة ويمد يده علانية للاجنبي الذي يستعمر ويسرق دولاً أقرب اليه من هذا الاجنبي في عقيدتها ومصيرها . وموقعها وتاريخها .. وقد ضربنا مثلاً لشاه ايران الذي اقام علاقاته الدبلوماسية والاقتصادية مع اسرائيل ضارباً بمشاعر العرب والمسلمين عرض الحائط .. مثل هذا الحاكم قد حدد موقفه سلفاً ، واتخذ وضعاً ينافي مصالح الأمة الاسلامية ، اي انه قد خرج على اجماعها، ثم هل ننسى أنه يحكم شعبه بالحديد والنار ولا يحظى الا بتأييد بعض الخونة وذوي المصالح ، وبحماية هؤلاء المستعمرين الذين يشترون بتروله ويحمون عرشه ويرسمون له الخطط والمؤتمرات .

ان صراحتنا في مثل هـذه الاحوال قد تكلفنا بعض التضحيات ، وقد تعوقنا بعض الشيء ، ولا بأس من التضحيات

فهي ضرورة لا بد منها ، ولن يزعجنا عقبات او بعض التأخير الزمني ، فالمسألة مسألة مبادىء قبل ان تكون مسألة تضحيات او وقت ، وبشيء من الادراك والوعي والفهم لمجريات الأمور يتضح لنا ان مثل هذا الملك الذي لا يحظى بتأييد شعبه ، ولا باحترام المسلمين ، لن يكون واحداً من رجال البناء في اقامة الاتحاد الاسلامي ..

والرأي في الصورة التي يتخذها الاتحاد الاسلامي لن يستطيع أن ينفرد به رجل واحد ، او تتحدده دولة واحدة ، وانما الصورة السياسية تحتاج لمزيد من الدراسة وتبادل الآراء ، واشتراك كل الاطراف المعنية بالامر اشتراكاً فعلياً جاداً كيا يصلوا الى الصورة المرضية المثلى ..

لقد كانت الدولة الاسلامية الأولى لها خليفة يملك في يديه السلطة بشتى ألوانها وكانت مكونة من عدة دول مثل مصر والعراق والشام والحجاز وغيرها . وكان الخليفه « يعين » والياً على كل دولة من هذه الدول ، وهذا الوالي يختار من يشاء من قضاة وقادة جند ومنظمين لبيت المال وما الى ذلك .. وفي رأينا أن الظروف التاريخية كانت تحتم مثل هذا الوضع في تلك الازمان ، ولنضرب لذلك مثلاً .. فعندما فتح العرب مصر ، كان الاسلام — رغم اعتناق الغالبية له — لم يزل جديداً بالنسبة لهم ، لقد بهرتهم مبادئه العامة ، واستولت عليهم روحه السمحة ، واصالته الرائعة ، وفطرته العظيمة ، فدخلوا فيه

أفواجاً غفيرة . ، لم يكونوا بعد قـد تمثلوا تعاليمه ، وتشربوا مبادئه كما فعل صحابة الرسول ومجاهدو الجزيرة العربية ، فهـل كان في استطاعة واحد من ابناء مصر في تلك الحقبة ان يحكم كما حكم عمرو بن العاص ، وهم لم يكادوا يتخلصون من حكم الرومان ، ومن العقائد التي كانت مسيطرة على أذهانهم ؟؟ لقد دخلت مصر الاسلام ، وكان لا بد أن يحكمها رجل مسلم عريق في اسلامـه قد تشرب المبادىء وعاش في ظلها سنوات ، وكافح من اجلها ، وشارك في ابلاغها للناس ، وبديهي ان الحاكم المسلم يجب ان يكون متمثلاً (للايديولوجية) التي اعتنقها ، والتي جاء لنشرها وتطبيقها ، وتربية الناس على آدابها ومثلها العليا .

تلك هي الصورة الحقيقية التي كانت كفيلة بأن تطبق ، وان تستجيب لمنطق الواقع والتاريخ والتطور .

ولم يكن الوالي في هاتيك الأزمان مطلق الحرية في تصرفاته ، كان الخليفة يشرف على الوالي ، ويحاسبه حساباً عسيراً ، يسأله عما جمع من مال ، كيف جمعه ، وفيم أنفقه ، ويستجوبه عـن ممتلكاته الخاصة قبل الولاية وبعدها ، وكان الخليفة يستمع لآراء الشعوب والافراد في ولاتهم ، وكان الناس يحتكمون اليه كلـما وقعت بهم مظلمة ، أو أضربهم تصرف من تصرفـات الوالي ، وللخليفة آنذاك ان يؤنب الوالي أو يعاقبه أو يعزله ويعين خلفاً له .. وبعبارة أخرى كان الخليفة هو صوت الشعب أمـام الوالي .. وفي نفس الوقت كان الخليفة هو حامـل لواء الاسلام

المدافع عنه أمام الولاة والشعوب على حد سواء .

والآن ....

لقد مضى على الاسلام ردح من الزمن ، وانتقل ميزان القوى من الحجاز الى غيرها ، وقد يكون في بلاد الاسلام – غير الحجاز – علماء اجلاء وشعوب تحرص على الاسلام وتنافح عنه اكثر من غيرهم ، فلا مجال اذن لطريقة تعيين الولاة التي كانت متبعة في الزمن القديم ، واصبح من اليسير جداً ان تختار الشعوب حاكماً لها ، حاكماً تنطبق عليه المواصفات والشروط التي وضعها الاسلام ، حاكماً تتمثل فيه رغباتها وآمالها ومعتقداتها ، ويعتبر هذا الحاكم بديلاً للوالي الذي كان يعين في الازمنة السابقة اما بالنسبة للحاكم العام الذي يشبه الخليفة فهي مسألة فيها نظر .. قد يختار مثل هذا الحاكم عن طريق مجلس اعلى يمثل الشعوب الاسلامية ، او قد تختاره مجالس الشورى في تلك البلاد مجتمعة ، وقد يختار عن طريق استفتاء شعبي يشترك فيه كل ابناء الشعوب الاسلامية .

* * *

ولنلق نظرة عابرة على مختلف الاتحادات في انحاء العالم الحديث .

ولنحاول ان نستبعد تلك الاتحادات التي تقوم على اساس اقتصادي بحت او على اساس عسكري بحت .

امامنا الاتحاد السوفيتي مثلاً .

واضح ان هذا الاتحاد يشمل عدة جمهوريات تربطها عقيدة او ايدولوجية واحدة هي الشيوعية ، ومن ثم لا حاكمية فيها لغير من يؤمن بهذا المبدأ ، وكل جمهورية تنتخب لها رئيساً بطريقة ما ، وكل دولة — ظاهرياً — لها كيانها الذاتي القومي . وهناك مجلس اعلى للاتحاد السوفيتي يشترك فيه مندوبون من الروسيا والصين والمجر وتشيكوسلوفاكياوغيرها ، وهذا المجلس يختار الرئيس الأعلى وباقي الاعضاء .

والحقيقة ان اغلب هذه الجمهوريات يخضع للاتحاد السوفيتي في نظمه وسياسته وتصرفاته الداخلية والخارجية ، وان بدا في الظاهر ان لها لون من الاستقلال الداخلي او الخارجي ، والدليل على ذلك اتفاق وجهات النظر دائماً في القضايا الكبرى المحلية والعالمية ، والحوادث تؤكد ان أي رأي يخرج عن الخطة التي رسمتها الروسيا يكون جزاؤه العقاب او الطرد او التطهير والصاق اشنع التهم ، ويبدو ان ابقاء الروسيا على نظام الجمهوريات الشعبية المستقلة ظاهرياً هو لون من التنظيم وتسهيل وسائل الاتصال والعمل لا اكثر ، وحتى يكون لها في المنظمات الدولية اكبر عدد ممكن من الاصوات .. ان نظام الاتحاد السوفيتي نظام دكتاتوري بحت .

دكتاتوري في المذهب ..

ودكتاتوري في الحكم ..

نظام يوهم بأنه جمهوري شعبي ، وان حكمه في الحقيقة ـ فرد مطلق السلطات يفعل ما يشاء ، وما أظن أسرار حكم سيتالين خلال سنوات طويلة بخافية على أحد ، حتى أبناء الجمهوريات السوفيات قد تحدثوا عنها ، وحملوا عليها حملات شعواء بعد موته .. انه نظام رهيب لا شك مهما حقق بعض الانتصارات العلمية او المادية او السياسية في المجال الخارجي ..

* * *

وهناك نظام آخر هو نظام الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو نظام دويلات مترابطة مستقلة داخليا ، متحدة بالنسبة لسياستها الخارجية ، ويجلس في القمة رئيس الولايات المتحدة يؤازره مجلس الكونغرس ، ويبدو ان مثل هذا النظام تستمع فيه الدول – كأفراد بمزيد من الحرية وتصريف الشؤون وقد تتخذ بعض الدول موقفاً مغايراً لموقف أمريكا، بل وتنشق عليها ضاربة عرض الحائط ببعض القيم والدساتير المتوارثة بالنسبة لهذا الاتحاد ، انه نظام أكثر تحرراً ، وأضعف ايديولوجية اذا قيس بنظام الاتحاد السوفيتي ، ولا يغرب عن البال أنه اذا كانت روسيا قد تلجأ الى بعض الوسائل البشعة في اخضاع الخارجين على ارادتها ونظم اتحادها فان أمريكا هي الأخرى لها وسائلها المغايرة من ضغط اقتصادي وتدبير مؤامرات ، واثارة حروب وقلاقل محلية ، واستخدام الدولار فيما عجزت عنه الدبلوماسية الامريكية ..

ولا مجال هنا للتفصيل والافاضة بشأن هذه التنظيمات، وإنما أردنا ان نمر بها مروراً عابراً ونحن نتجه الى تكوين اتحادنا الاسلامي ، حتى نصل الى بعض المقارنات العامة المفيدة ..

ولا شك ان الطريقة الأنجح بالنسبة لدولنا المسلمة هي ان يربطنا كما قلنا رباط مبادىء وايديولوجيات ، وان تختار كل دولة مسلمة حاكماً لها معبراً عن ارادة جماهيرها وعقيدتها ، يساعده مجلس شورى محلي ومجلس وزراء ، وتحقق لها بذلك لوناً من الاستقلال الداخلي ..

ثم ينبثق عن هذه الدول مجلس أعلى - مشابهاً لمجلس الاتحاد السوفيتي الأعلى - يصرف أمورها الخارجية ، ويعمل على تمكين ايديولوجياتها ، ويرسم الخطوط العامة لنظمها الاقتصادية مراعياً ظروفها الخاصة - بيئية واجتماعية وجغرافية - ويلون الفكر والفن والسياسة بصبغة اسلامية ، أعني ايديولوجية اسلامية . متجنباً ما يقع فيه الاتحاد السوفيتي من انحراف تطبيقي ، وتعسف مذهبي ، وسيطرة قاتلة على الحريات الشخصية ، والظروف المحلية ، ومتجنباً ايضاً ما تتورط فيه السياسة الأمريكية من وسائل غير نظيفة .

ولا تنسى ان يكون المجلس الأعلى مجالاً للجان شتى في القانون والاقتصاد والسياسة العامة والثقافة وما الى ذلك ..

* * *

هذه محاولة سريعة، او رسم كاريكاتيري، للصورة السياسية

التي يكون عليها الاتحاد الاسلامي ، ونحن نعترف أنهـا صورة مجملة بل وسطحية ، وكل ما نقصده ونحن نسجل هذه السطور ان نفتح الطريق للأذهان الحرة المسلمة كي تمسك بالخيط وتمضي به الى الأمام ، باذلة أقصى الجهد ، مفكرة أخلص التفكير في الوصول الى الصورة المفضلة المرجوة ، ومتى اتفقنا على الاسس التي أشرنا اليها في بداية هذا الفصل ، وآمنا بها أعمق الايمـان ، فلن نعجز عن الوصول الى الصورة السليمة للحـكم الاسلامي والاتحاد الكامل للدوله الناهضة الفتية « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنين .. »

صدق الله العظيم ..

الفصل السادس

الاتحاد الاسلامي وعلاقاته الخارجية

طبيعـــة

ان طبيعة المبادىء الاسلامية ذات مشارب انسانية عالمية ، لأن دعوته كذلك، فهي للناس كافة ، وليست لقبيل دون قبيل، ولم يختص بها جنس من الأجناس، «وما ارسلنا الا رحمة للعالمين»، وكثيراً من الآيات والأحاديث تؤكد هذا المعنى ، وتدعو اليه ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان المسلم مطـالب بأن يؤمن بجميع الرسالات والنبوات السابقة لمحمد صلوات الله عليه، والمثل العليا التي عمل الاسلام على نشرها سواء منها ما يتعلق بالفرد في سلوكه وتربيته، وما يتعلق بالجماعات في صلاتها وتعاملها وتآزرها وسياستها ، كلها تتصف بالعموم والشمول ، وتتواءم مع مختلف البيئات والمجتمعات .

فالاتحاد الاسلامي لن يعيش اذن خلف ستار حديدي .

لن يعتزل الناس او يعاديهم او ينفر منهم ..

والاتحاد الاسلامي لن ينطوي على نفسه ، او يعيش في قمقم من الانانية والخوف والسلبية ..

ان طبيعته تفرض عليه ان يخرج الى العالم مبشراً بمبادىء الحب والحرية والعدالة والمساواة ، والآخاء ..

وظروفه العقيدية تحتم عليه ان يخالط المجتمعات ، ويتعامل معها ، ويتفاعل مع ثقافتها ونهضاتها، ويبادلها المعارف والعلوم.. ورسالته الخالدة تدفعه دفعاً لان يشارك في قضايا الانسان عامة ، ويكون حارساً على المبادىء والقيم العليا ..

وعلى المسلمين – هؤلاء الملايين المبعثرين في كل مكان من انحاء المعمورة – ان يدرسوا مشاكل العالم وخلافاته ، وان يحكموا مقاييسهم في تقدير خطئها وصوابها ، وعدلها وتحيفها أجل .. ان الأمة الاسلامية لا تستطيع ان تكون في غنى عن العالم .. والعالم لن يستطيع ان يعيش في غنى عنها ..

فلا يمكن ان نتجاهل هذا العالم الواسع العريض بشعوبه وفلسفاته والعالم بدوره لا يمكنه ان يتجاهل هذه الملايين الغفيرة حيث ان لها وزنها في تقرير مصير الشعوب، بما تملك من امكانيات وثروات وتراث وطاقات مادية وروحية ..

نحن من العالم .. والعالم منا .. بل نحن رمز الثقل والترجيح فيه.. والدعوة الاسلامية في اطوارها الاولى لم تنعزل او تتقوقع، ليس هذا بالنسبة لها كمجموعة من البشر ، ولكن بالنسبة للافراد ايضاً . وإلا لما قال الرسول: « لا رهبانية في الاسلام » ، فلسنا امة الصوامع او الستارات الحديدية او القماقم ، بل نحن امــة

تربط نفسها بكل التيارات الانسانية التي تخفق بهـــا جنبات المعمورة ، وتربط نفسها أيضاً بالتاريخ وتجاربـــه وأمتداداته ولحظات ضعفه وقوته ، وايام حربه وسلامـــه .. وفي الماضي تعانق الاسلام مع ثقافات الفرس والهنـــد وافكار الرومان واليونان ، وفي الماضي – كما اسلفنا – حملنا الى اوربا اشعاعات العلم والمعرفة في الطب والكيمياء والرياضيات .. ووفدت علينا الحملات الصليبية تحمل السيف والغرور والعـدوان ، فرددناها على أعقابها تحمل المفاهيم الحضارية المدهشة ، لقد انكسر سلاحها وانطفأ بريقه ، لكن عقولهـــا ألتمعت بقيم للحياة جديدة ، واضاءت بمعتقدات حديثة في الحيـــاة والسلوك والسياسة وحرية البشر ..

ان احتكار العلم وعدم نشره والاستفـــادة به في شرعنا حرام .. واحتكار المال وعدم استغلاله في المصلحة العامة واغداقه على الفقراء والمعدمين والعاجزين .. في شرعنا حرام .

ونكوصنـــا عن نشر الدعوة – دعوة الحق والحب والحرية والاخاء – والتضحية من اجلها .. في شرعنا .. حرام .

والقسوة والظلم والانانية وسياســة الكذب والخداع .. في شرعنا حرام ..

والعنصرية .. والتفرقة على اساس اللون او الجنس في شرعنا حرام .. واشعال الحروب ظلماً وافتئاتاً أو من اجل الاستعمار

والمطامع الشخصية والامجاد الفردية .. في شرعنا حرام ..

والفرقة والشقاق والغدر .. حرام .. حرام ..

ومسالمة الخونة والمعتدين واللصوص والظالمين .. حرام ..

ومقاومة كل هذه الآفات والعلل والنقائص واجب مفروض في عنق كل مسلم يؤمن بالله وباليوم الآخر وبرسالة محمد ..

وغير ذلك كثير مما لا يتسع لسرده المقام ..

من هذا يتضح ان العزلة شيء يتنافى مع ابسط قواعد الاسلام ومبادئه ، و « خلافة » المسلم لله ، تضع في عنقه كثيراً من الواجبات والالتزامات .. لا يكمل ايمانه الا بها ، ولا تصح عقيدته الا اذا حاول ادائها في صدق واخلاص لا يبالي في ذلك كل اسلحة الطيش والعدوان والخيانة التي تعترض طريقه ، او تعوق سيره ..

الاتفاقات التجارية والصناعية :

في ظل هذه المفاهيم البسيطة الواضحة التي سردناها في الصفحات السابقة ، نستطيع ان نعقد مع الدول الاخرى الاتفاقات التجارية والصناعية ، ونستطيع ان نتبادل القروض والمعونات الاقتصادية نستطيع ان نعطيهم ..

ويستطيعون ايضاً ان يأخذوا منا ..

هم في حاجة الى اموالنا وبعض منتجاتنا الزراعية والصناعية

والمواد الخام من معادن وبترول وغيرهما .

ونحن في حاجة الى مصنوعاتهم واموالهم ومنتجاتهم ايضاً . .

لكن . .

لتجر هذه المعاملات والبيع والشراء والتبـــادل على أسس نظيفة حرة ، لا مطامع وراءهـــا ، ولا اهداف خبيثة تختفي في طياتها . .

فنحن لا نبيع ضمائرنا من أجل صفقة تجارية . .

ونحن لا نتنازل من مبادئنا وعقيدتنا ثمناً لقرض كبير او صغير . . ولا يسمح لنا ديننا ان نفرط في استقلالنا من اجل أية معونة تقدم لنا مهما كنا في مسيس الحاجة اليها . .

ان معاملاتنا – نحن المسلمين – تقوم على قدم المساواة بيننا وبين غيرنا ، لا ينحرف بنا عن غايتنا هوى ، ولا يميل بنـا عن القصد مطامع ، لاننا احرار في معاملاتنا ، رجال في تصرفاتنا ، ولا نبيع انفسنا وتقاليدنا وديننا بذهب العالم كله . . ان الدولار والروبية والروبيل والاسترليني كثيراً مـا تستعمر شعوباً دون حاجة الى جيوش او سلاح ، وتستغل سلطانهـــا في القضاء على حريات الشعوب واستقلالها ، وتعزل حكومات وتقيم اخرى ، كي تسير في فلكها وتأتمر بأمرها ، وتحمي ملوكاً خونــة ، بل وتعطيهم مرتباتهم ومرتبات موظفيهم ، مثل هـــذا اللون من المعـــاملات لا نستسيغه ، بل نحاربه ونناصبه العداء ولا نمد يدنا

لنصافحه او نسالمه ، ايماناً منا بحرية الانسان ، وحقه المقدس في حيـــاة شريفة نظيفـة ، لا يرهقهـا لون من ألوان القيود والتحكمات والمظالم . .

لقد قلت ذات مرة عندما ثارت أجهزة الأعلام السوفيتية ضدنا عندماقبض على بعض الخونة مانصه - تحت عنوان الثـــائر الأحمر - يريـد الثمن - « ثارت أجهزة الأعلام السوفيتية ، وهاجمت الجمهورية العربية المتحدة .. وكالت لهـــا الاتهامات جزافاً .. زاعمة أننا نطارد الشيوعيين في بلادنا بـــلا هوادة ، ونقضي عليهم في سجوننا ، وليست هذه اول مرة تحاول روسيا ان تدس انفها في سياستنا الداخليـة ، فكثيراً ما دافعت عن معتنقي الشيوعية عندنا ، وخلقت لهم البطولات الزائفة وعزت اليهم قصصاً مصطنعة لتسدر الدموع والعطف ..

وأني لأعجب أشد العجب لدولة كبرى ، تبكي من أجـــل بضعة أفراد أرادوا ان يفرضوا « التبعية » على بلادهم ، ولا تبكي روسيا من أجل الآلاف المؤلفة التي سحقها جيشها الأحمر ، وهو يدك ثوار المجر في معاقلهم ، ويقتل المطالبين بالحريات، ويختطف رئيس وزرائها ويقتله تحت سمع العالم وبصره ..

ولماذا نذهب بعيداً ؟؟

ان حركات التطهير الرهيبة في روسيا تحدث كل عـــام ، والمئات من زعماء الروسيا نفسها تأكلهم السجون ، ويفنيهم

الارهاب ، ويذيبهم الهوان وكبت الحريات .. وتفعل كل ذلك باسم « المصلحة العامة » و « أمن » الدولة ..

ماذا تريد روسيا ؟؟ وما هي حقيقة أهدافها ؟؟

نحن نعلم أنها أيدت بعض قضايانا في المجالات الدولية والمنظمات العالمية ، مثلها في ذلك مثل عشرات الدول في الشرق والغرب، ونعلم أيضاً انها قد نشطت معنا اقتصاديا .. لا من اجل « سواد عيوننا» .. ولكن طبقاً لقوانين الاستثمار وقواعد التبادل التجاري ..

لكن الشيء الذي لم نكن نعلمه هو ان تحاول روسيا ان تقبض الثمن مرة اخرى .. تقبضه بصورة خبيثة حقيرة .. اذ تحاول ان تفرض علينا فلسفتها ، ومذاهبها ، وتشكيلاتها الارهابية ..

واذا كانت غاية الشيوعيين هي لقمة العيش للمواطن، فغايتنا أكبر لأنها تتعلق بلقمة العيش وبحرية المواطن وكرامته .. وبحياة النور ، لا حياة السراديب والغموض والخوف .

واذا كان هدفهم مصلحة « المجموع » فان هدفنا مصلحة « الفرد والمجموع » .. واذا كانوا يمثلون معسكراً كبيراً من العالم ، ويعتبرون كثرتهم العددية دعامة لهم ، فنحن لا نقيم دعائم الصواب والخطأ على اساس العدد ، وانما على اسس اخرى تتعلق بالانسان في ذاته وانطلاقه ، والتعبير عن حريته وارادته وافكاره .

واذا كان للشيوعية « فلسفة » تلبس كل يوم ثوباً من صنع لينين او سيتالين او بولجانين او خروشوف .. فان لنا « ديناً ».

وشتان بين الفلسفة والدين .

« صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة » .

* * *

وليست الروسيا وحدها تفعل ذلك .

فالعالم كله لم ينس دور امريكا وانجلترا وفرنسا عندما فكرت الجمهورية العربية في انشاء « السد العالي » ، كان البنك الدولي يريد ان يفرض علينا « التبعية » ثمناً للقرض الذي يدفعه .. ثم ذلك الحصار الاقتصادي الذي فرضوه بعد تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر .

ان كارثة الانحراف الخلقي الدولي هي العقبة الكبرى التي تتصدى لحرية الشعوب وأمنها .. هذا العالم المليء بالمفاسد والمطامع والأهواء القذرة ، هذا العالم الذي ابتعد عن خالقه وعن قيمه الروحية المضيئة . ومثله العليا الرقراقة ، نسوا الله ، فأوقعهم في شرك الحروب والخلافات والقلق والتسابق في اختراع آلات الموت والدمار ، وسادت العالم كله موجة من سوء الظن والكراهية والعصبيات المنحرفة .

مرة اخرى ان الاتحاد الاسلامي لا يقيم معاملاته المالية الا على اسس نظيفة ، تحفظ له حريتـــه وشخصيته ، وتحمي له

استقلاله وكرامته .. وإلا فلا .

الاحلاف العسكرية :

ان قصة الاحلاف العسكرية مقرونة في اذهاننا بشتى الخدع والضلالات والمفاسد ، ونحن الدول الاسلامية ، قاسينا الكثير من ويلاتها ، وذقنا الأمرين من جرائها ، ان أسلحة حلف الاطلنطي مثلاً هي التي قذفت القنال بنيرانها ، وهي التي ايدت اسرائيل باسلحتها ، وبويلاتها سال دم الشعب الجزائري المكافح ، وتمزقت وحدة شعوب اخرى غيرنا في كوريا وفيتنام والهند الصينية وفرموزا وغيرها ، وبسبب هذه الاحلاف وقعت شعوب عدة في مآزق لافكاك منها نذكر منها تركيا وبعض دول افريقيا وآسيا .

ومن ثم فان الأساس الذي تقوم عليه الأحلاف العسكرية أسس عدوانية ذات مطامع ، وهي على العكس مما يتصور البعض تقربنا من حرب عالمية لا تبقى ولا تذر ، وهي اداة غاشمة في ايدي الدول الكبرى ، لتحقق بها أهدافها الخبيثة ، وتهدد أمن العالم وسلامته دائماً ، وتفتح بابا لسباق التسلح لا تسده إلا حرب تقضي على العالم .

والاتحاد الاسلامي وسط هذه المطامع والزوابع العاصفة والاخطار المحدقة بالعالم لا يصح ان يؤازر أياً من هذه الاحلاف ، أو يؤيدها او يشارك فيها ، لأنها بطبيعتها أحلاف عدوانية تثير

مزيداً من القلاقل والتكتلات، ولأن أسسها تتنافى مع المبادىء الاسلامية التي درج عليها الرسول وصحابته من بعده ، ولان تجربتها في الماضي لم تنتج سوى الحرب والخراب وقتل البشر بالملايين ..

ومن ثم فان واجب الامة الاسلامية الا تنحاز لمعسكر ما من المعسكرين انحيازاً تاماً على طول الخط ، وواجبنا يشبه الى حد كبير واجب القاضي النزيه الذي يحكم فيما يعرض عليه من قضايا حكماً خالصاً ، قد يكون في صالح هذا مرة ، وفي صالح ذاك مرة اخرى ، ولهذا نرفض الأرتباط الأبدي بمعسكر من المعسكرات ، ونرفض كلية اي تحالف عسكري مع واحد منها .

هذه واحدة ..

والثانية ، انه لا مانع من عقد معاهدات عدم اعتداء مع اية دولة صديقة من الدول غير الاسلامية ، دون ان يكون لها سياسة عدائية تضر بقضايا شعوبنا الاسلامية او تناصر غاصباً من مغتصبيها ..

ومعاهدة « عدم الاعتداء » لا تنفي ان نوجه الى تلك الدولة الصديقة ما يعن لنا من نصائح وآراء اذا ما اتخذت مسلكاً غير مشرف ، او انحرفت عن الجادة ..

هذا الموقف الحيادي ليس موقف ضعف وهروب ، وانما يعني الا نزيد التوتر الدولي ، او نلقي الوقود في نيران البغضاء

والتحرش بين الدول الكبرى ، والحياد ليس سلبية مطلقة ، وانما – كما قلنا – يضعنا في منصة القضاء ، ونحكم على المنشقين والمنحرفين حكماً صادقاً نزيهاً ، ولا نقف عن هـذا الحد ، بل نمضي قدماً في عدم مد ايدينا الى الظالمين والمعتدين ، وستكون مخاصمتنا لهم من اجل الحق وحده .. الحق المجرد ، لا من أجل دولة كبرى ، او معسكر من المعسكرات المتناحرة ، وقد تطرأ قضية اخرى يصدر فيها حكمنا ضـد من اصدرنا براءته في مرة سابقة . من هذا يتضح ان حيادنا ايجابي ..

وان موقفنا موقف مبدأ سام لا نتأثر فيه بوضع دولة صديقة او عدوة ..

والرسول في فجر الدعوة الاسلامية عقد معاهدات عـدم اعتداء ، لكنه نفض يده من كل من غدر بالمسلمين ، أو طعنهم في أظهرهم ، أو تربص بهم الدوائر ، وخان العهود والمواثيق .

ولهذا فنحن لا نجد مانعاً في الارتباط مع اية دولة غير مسلمة تتمسك بمبدأ الحيادية وتعمل من اجـل السلام ، واحقاق الحق وازهاق الباطل ، في الحدود التي ترسمها لنا ايديولوجيتنا والأسس التي ينهض عليها اتحادنا الاسلامي ..

عدوان :

والاتحاد الاسلامي يعتبر دوله كلاً لا يتجزأ ، بناءً واحـداً ينهض على اسسه المعروفة ، وتحوطه قلوب المسلمين وسواعدهم ،

وبديهي أن هذا الارتباط يفرض على شعوبنا في مختلف انحـــاء الارض تكاليف وواجبات لا مناص من القيام بها ، وأول هـذه الواجبات هو الوثوب يداً واحدة اذا ما حاولت اية دولة معتدية ان تتحرش بجزء من اجزاء الاتحاد او تشن عليه الحرب اوتقتطع مساحة من ارضه صغرت او كبرت ، أو تحاول أن تفرض عليه أموراً ينفر منها ، ويعرض عنها .. ان أي عدوان على اية دولة اسلامية عدوان على المسلمين جميعاً ، ومثل هذا العدوان يجب أن يرد في الحال حتى يعود الاستقرار والسلام والحرية ..

ولا يعني هـــذا بالطبع ان نناصر الدولة الاسلاميـة سواء اخطأت او اصابت ، فهذا يتنافى مع معتقداتنا ، فلكل ذي حق حقه ، ولا يكون رباطنا مدعاة للظلم والعدوان .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ، هـــو أقرب للتقوى » ..

«وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»

« انصر أخاك ظالماً او مظلوماً . فقال رجـل : يا رسول أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال : تمنعه عن الظلم فذلك نصرك اياه [1] » .

اما ان نترك الدول الاسلامية ، تنهشها الذئاب ، وتنهشها الكلاب من كل مكان، وتقع في ايدي الغاصبين والمستعمرين فهذا

---

(١) رواه ابو داود .

ما لا يقره دين ، ولا تؤيده رجولة ، ولا ينهض به واقع ..

* * *

امور داخلية :

واذا ما جد خلاف بين المسلمين أنفسهم في دولة ما ، او بين دولة مسلمة وشقيقة لها فإن على الامة الاسلامية ان تداوي جرحها بنفسها ، وتسد ثغرات وحدتها ، وألا تسمح لأي دخيل أن يحكم بينها ، أو يبت في شأن خاص من شئونها ، فنحن أحرى بحل مشاكلنا، وأدرى بظروفنا، وما علينا الا أن نحكـّم كلمة الله بيننا ، ونرجع الى المبادىء التي شرعها الله ورسوله ، وفي ظل هذا الفهم لن تبقى مشكلة بدون حل ، ولن نتيح الفرصة لاجنبي كي يوقع بين صفوفنا بالبغضاء والشحناء ، ويستفيد من فرقتنا واختلافنا ..

وعندما تحاول دولة ما ان تدس انفها ، او تفرض سلطانها علينا ، كان واجبنا الاول ان ننتبه لمكيدتها ، ونعتبرها عدواناً مباشراً على استقلالنا وحريتنا ، ومن ثم يجب أن ننسى أحقادنا الشخصية ، وخلافاتنا المؤقتة ، ونغلب الصالح العام على المصلحة الخاصة ..

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم

فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » ..

* * *

خاتمة :

والآن ونحن نترك القلم ، ونترك لاجيالنا الفتية المؤمنة مهمة البدء من جديد ، والعمل من أجل كلمة الله ، لايسعني الا ان اترنم معك بكلمات فيلسوف الاسلام الشاعر محمد اقبال [1] وهو يقول عن الامة الاسلامية :

« انها تعلو فوق الامم
لانها أمة نيطت بها الامامة في الدنيا والآخرة .
فهي لا تنى عن مواصلة أمور الخلق
لان النوم والتعب محرمان عليها ..
« انها في البساتين عندليب حسن التغريد
وفي الصحاري باز خفيف سريع الانقضاض ..
الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطانا .
كما ان الفقير فيها امير على الرغم من كونه درويشا ..
انت يد قدرة الله ايها المسلم ..

---

(١) اقبال الشاعر الثائر (للمؤلف) ص ٦٧

وأنت لسانها ..
فهيا اخلق يقين الهمة ولا تعش أسير الاوهام ..
ان الدنيا تفنى ، ولكنك أعظم خلوداً من الدنيا ..
لك مجد الازل ..
ولك نعيم الأبد ايضاً ..
وانت رسالة الله الأخيرة في الأرض ..
لذلك فأنت موصول الدوام
اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى .
اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة .
لأنك أنت المنشود لتسود العالم مرة ثانية .
هذه هي مقاصد الفطرة الاولى ورمز الاسلام الحقيقي :
أن تملك العالم بالأخوة ..
وتحكمه بالمحبة ..
ما الذي محا استبداد قيصر ، وشدة كسرى ؟؟
اكانت هناك في العالم قوة تحارب الجبابرة سوى قوة علي ،
وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ؟؟

« كتب للمؤلف »

● روايات

١ الطريق الطويل : جائزة وزارة التربية (١٩٥٧) — طبعة ثالثة .

٢ في الظلام : » » » (١٩٥٩)

٣ اليوم الموعود : جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب—طبعة ثانية .

٤ عذراء القرية

٥ طلائع الفجر

٦ ليل الخطايا

٧ رأس الشيطان

٨ الربيع العاصف

● قصص قصيرة .

٩ موعدنا غدا : وبها القصة الفائزة بالجائزة الأولى

: في مسابقة نادي القصة وميدالية
الدكتور طه حسين الذهبية .

١٠ **دموع الامير** : قصص اسلامية قصيرة ، فائزة
بجائزة القصة التاريخية القصيرة .

● دراسات وتراجم وسير .

١١ **اقبال الشاعر الثائر** : جائزة وزارة التربية .

١٢ **شوقي في ركب الخالدين** : » » »

١٣ **المجتمع المريض** : » » »

١٤ **الطريق الى اتحاد اسلامي**

● مسرحيات .

١٥ **على أسوار دمشق**

● شعر .

١٦ **أغاني الغرباء**

١٧ **نحو العلا**

الفهرس

ـــ المؤلف ـــ

- من مواليد ١٩٣١ .
- طبيب وجراح بوزارة الصحة بالقاهرة .
- عضو نادي القصة .
- نال خمسة جوائز كبرى من وزارة التربية والتعليم في الرواية العربية والدراسات الأدبية والاجتماعية .
- نال جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
- نال جائزة نادي القصة والميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين .
- قامت وزارة الثقافة بنشر روايته الأولى (الطريق الطويل) .
- قررت بعض رواياته على طلبة المدارس الثانوية في الأعوام الثلاثة الأخيرة .
- يصدر في كتاباته عن موقف فكري معروف ، ويلتزم خطة الأدب الهادف .
- كان أحد ممثلي الجمهورية العربية المتحدة في مؤتمر « كتّاب آسيا وأفريقيا » .
- متنوع الأنتاج . يكتب الرواية والقصة القصيرة والشعر والدراسات .

هذا الكتاب

- لعل اخطر ما يتعرض له هذا الكتاب هي تلك الاسئلة الهامه التي يطرحها المؤلف .

– ما هي الفلسفات والتيارات الفكرية التي تتحكم في مصير العالم ؟

– وما هو الوضع الايديولوجي للإسلام بين هذه التيارات؟

– لماذا انحسر ظل الاسلام من حيث التشريع والتطبيق ؟

- وفي جرأة وصراحة يتعرض المؤلف لفكرة خلق رأي عام اسلامي ، متناولاً اجهزة الاعلام ، مركزاً الاضواء على انحراف الصحف والاذاعات والمفاهيم المضطربة للادب العربي ....

- وفي اثناء ذلك يحاول المؤلف – بقلم الفنان وعقلية العالم الطبيب – ان يلمس الداء ، ويشخص العلة ، ويضع الدواء من اجل عالم مشرق يسوده الحب والحرية والـ[illegible] والرخاء .

الثمن ٢٠٠ قرش لبناني
٢٥٠ مليم ليبي او ...
٢٥٠ قرش سوري

الناشر
مكتبة النور - طرابلس - ليبيا
ص ب رقم ٨٨٠